رسالة التوحيد

تأليف

الإمام محمد عبده

الكتاب: رسالة التوحيد

الكاتب: الإمام مُحَمَّد عبده

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

عبده، مُحَمَّد

رسالة التوحيد / الإمام مُحَمَّد عبده

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٦٢ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٨ – ٦٤ – ٦٨٢٣ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١١١٣٢ / ٢٠٢٠

رسالة التوحيد

هذه الرسالة

"الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم* مالك يوم الدين * إياك نعبد وإياك نستعين *إهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين "

(وبعد) فلما كنت في بيروت من أعمال سورية، أيام بعدي عن مصر عقب حوادث سنة ١٢٩٩ هجرية ودعيت في سنة ١٣٠٣ إلى تدريس بعض العلوم في المدرسة السلطانية، ومنها كان علم التوحيد رأيت أن المختصرات في هذا الفن ربما لا تأتي على الغرض من إفادة التلامذة، والمطولات تعلو على أفهامهم والمتوسطات ألفت لزمن غير زمانهم، فرأيت من الأليق أن أملى عليهم ما هو أمس بحالهم، فكانت أمالى مختلفة تتغاير بتغاير طبقاتهم، أقربها إلى كفاية الطالب ما أملى على الفرقة الأولى في أسلوب لا يصعب تناوله، وإن لم يعهد تداوله، تمهيد مقدمات، وسير منها إلى المطالب من غير نظر إلا إلى صحة الدليل، وإن جاء في التعبير على خلاف ما عهد من هيئة التأليف، رامياً إلى الخلاف من مكان بعيد حتى ربما لا يدركه إلا الرجل الرشيد غير أن تلك الأمالي لم تحفظ إلا في دفاتر التلامذة ولم أستبق لنفسي منها شيئاً وعرض بعد ذلك ما استقدمني إلى مصر. وكان من تقدير الله أن اشتغل بغير التعليم، حتى أتى النسيان على ما أمليت وذهب عن الخاطر جميع ما ألقيت، إلى أن خطر لي من مدة أشهر خاطر العود إلى ما تهواه نفسى، ويصبو إليه عقلي وحسي، وأن أشغل أوقات فراغي بمدارسة شيء من علم التوحيد، علماً مني أنه ركن العلم الشديد، فذكرت سابق العمل، وتعلق بمثله الأمل، وعزمت أن أكتب إلى بعض التلامذة ليرسل إلى، ما تلقاه بين يدي، لكيلا أنفق من الزمن ما أنا في أشد

الحاجة إليه في إنشاء ما أرى التعويل عليه، وذكرت ذلك لأخي [1] فأخبرني أنه نسخ ما أملى على الفرقة الأولى. فطلبته وقرأته فإذا هو قريب مما أحب، قد يحتاج إليه القاصر، وربما لا يستغني عنه المكاثر، على اختصار فيه مقصود، ووقوف عند حده من القول محدود، قد سلك في العقائد مسلك السلف، ولم يعب في سيره آراء الخلف، و بعد عن الخلاف بين المذاهب، بعد عليه عن أعاصير المشاغب، ولكن وجدت فيه إيجازاً في بعض المواضع، ربما لا ينفذ منه ذهن المطالع وإغفالا بعض ما تمس الحاجة إليه، وزيادة عما يجب في مختصر مثله أن يقتصر عليه، فبسطت بعض عباراته، وحررت ما غمض من مقدماته، وزدت ما أغفل وحذفت ما فضل، و توكلت على الله في نشره، راجياً أن لا يكون في قصره ما يحمل على إغفال أمره، أو يغض من قدره. فما من أحد بدون أن يعين ولا بفوق أن يعان. والله وحده ولى الأمر وهو المستعان.

([1]) هو حمودة بك عبده. وكان تلميذا في المدرسة السلطانية في ذلك العهد

مقدمات

التوحيد: علم يبحث فيه عن وجود الله وما يجب أن يثبت له من صفات، وما يجوز أن يوصف به، وما يجب أن ينفي عنه، وعن الرسل لإثبات رسالتهم وما يجب أن يكونوا عليه وما يجوز أن ينسب إليهم، وما يمتنع أن يلحق بهم.

أصل معنى التوحيد: اعتقاد أن الله واحد لا شريك له. وسمي هذا العلم به تسمية له بأهم أجزائه، وهو إثبات الوحدة لله في الذات والفعل في خلق الأكوان، وأنه وحده مرجع كل كون ومنتهى كل قصد [1] وهذا المطلب كان الغاية العظمى من بعثة النبي ﷺ كما تشهد به آيات الكتاب العزيز. وسيأتي بيانه.

وقد يسمى علم الكلام إما لأن أشهر مسألة وقع فيها الخلاف بين علماء القرون الأولى هي أن كلام الله المتلو حادث أو قديم، وإما لأن مبناه الدليل العقلى وأثره يظهر من كل متكلم في كلامه وقلما يرجع فيه إلى النقل اللهم إلا بعد تقرير الأصول الأولى ثم الانتقال منها إلى ما هو أشبه بالفرع عنها، وإن كان أصلا ما يأتي بعدها وإما لأنه في بيانه طرق الاستدلال على أصول الدين أشبه

---

(1) فات الأستاذ أن يصرح بتوحيد العبادة، وهو أن يعبد الله وحده ولا يعبد غيره بدعاء ولا بغير ذلك مما يتقرب به المشركون إلى ما عبدوا معه من الصالحين والأصنام المذكرة بهم، وغير ذلك، كالنذور والقرابين تذبح بأسمائهم أو عند معابدهم، وهذا التوحيد هو الذي كان أول ما يدعو إليه كل رسول قومه.، بقوله (اعبدوا الله مالكم من إله غيره).

بالمنطق في تبيينه مسالك الحجة في علوم أهل النظر و أبدل المنطق بالكلام [1] للتفرقة بينهما.

* * *

هذا النوع من العلم على تقرير العقائد وبيان ما جاء في النبوات- كان معروفا عند الأمم قبل الإسلام في كل أمة كان القائمون بأمر الدين يعملون لحفظه و تأييده وكان البيان من أول وسائلهم إلى ذلك لكنهم كانوا قلما ينحون في بيانهم نحو الدليل العقلي و بناء آرائهم و عقائدهم على ما في طبيعة الوجود أو ما يشتمل عليه نظام الكون بل كانت منازع العقول في العلم و مضارب الدين في الإلزام بالعقائد و تقريبها من مشاعر القلوب على طرفي نقيض. وكثيراً ما صرح الدين على لسان رؤسائه أنه عدو العقل نتائجه ومقدماته. فكان جل ما في علوم الكلام تأويل و تفسير، وإدهاش بالمعجزات، أو إلهاء بالخيالات يعلم ذلك من له إلمام بأحوال الأمم قبل البعثة الإسلامية.

جاء القرآن فنهج بالدين منهجاً لم يكن عليه ما سبقه من الكتب المقدسة، منهجاً يمكن لأهل الزمن الذي أنزل فيه ولمن يأتي بعده أن يقوموا عليه. فلم يقصر الاستدلال على نبوة النبي (ص) بما عهد الاستدلال به على النبوات السابقة. بل جعل الدليل [2] في حال التي مع نزول الكتاب عليه في شأن من البلاغة يعجز البلغاء عن محاكاته فيه ولو في مثل أقصر سورة

---

(1) الصواب : وأبدل الكلام بالمنطق. قال في الصباح المنير : وأبدلته بكذا إبدالا – نحيت الأول وجعلت الثاني مكانه.

(2) أي الدليل الذي هو العمدة في التحدي وإن وجد غيره بل هذا الدليل مركب من عدة أدلة. أولها حال التي في أميته وظهور العلم على لسانه في كهولته، ومنها إعجاز القرآن بلاغته، و أقوى منه إعجازه با فيه من العلوم الآلية والتشريع والأخبار بالغيوب الماضية والمستقبلة فيما بينه المؤلف في الكلام على نبوة محمد (ص).

منه.وقص علينا من صفات الله ما أذن الله لنا أو ما أوجب علينا أن نعلم لكن لم يطلب التسليم به لمجرد أنه جاء بحكايته ولكنه أقام الدعوى وبرهن [١] وحكي مذاهب المخالفين وكر عليها بالحجة [٢] وخاطب العقل، واستنهض الفكر، وعرض نظام الأكوان وما فيها من الأحكام والإتقان على أنظار العقول.. وطالبها بالإمعان فيها لتصل بذلك إلى اليقين بصحة ما ادعاه ودعا إليه، حتى إنه في سياق قصص أحوال السابقين كان يقرر للخلق سنة لا تغير [٣] وقاعدة لا تتبدل، فقال (٤٨: ٣٢ سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) وصرح [٤] (١٣ : ١١ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) (٣٠ : ٣٠ فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) واعتضد بالدليل حتى في باب الأدب فقال (٤١ : ٣٤ ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم) وتآخي العقل والدين لأول مرة في كتاب مقدس على لسان نبى مرسل، بتصريح لا يقبل التأويل.

وتقرر بين المسلمين كافة – إلا من لا ثقة بعقله ولا بدينه – أن من قضايا الدين مالا يمكن الاعتقاد به إلا من طريق العقل كالعلم بوجود الله و بقدرته على إرسال الرسل و علمه بما يوحي به إليهم وإرادته لاختصاصهم برسالته وما يتبع ذلك مما يتوقف عليه فهم معنى الرسالة وكالتصديق بالرسالة نفسها، كما أجمعوا على أن الدين إن جاء بشي قد يعلو على الفهم، فلا يمكن أن يأتي بما يستحيل عند العقل.

---

(١) قال في الأساس : أبره : جاء بالبرهان. وبرهن مولد.

(٢) أي حمل عليها مجالداً لها بالحجة

(٣) تغير – بفتح التاء – أصله تغير حذف منه التاء وأثبتها في تتبدل على الأصل. ويجوز أن تكون "تغير"، بضم التاء بالبناء للمفعول أي لا يغيرها أحد ولا تتبدل بنفسها.

(٤) "صرح" يتعدى بالباء. وهنا قدر بعده القول أو ضمن معناه

جاء القرآن يصف الله بصفات – وإن كانت أقرب إلى التنزيه مما وصف به في مخاطبات الأجيال السابقة – فمن صفات البشر ما يشاركها في الاسم أو في الجنس [1] كالقدرة والاختيار والسمع والبصر، وعزا إليه أموراً يوجد ما يشبهها في الإنسان كالاستواء على العرش وكالوجه واليدين، ثم أفاض في القضاء السابق وفي الاختيار الممنوح للإنسان، وجادل الغالين من أهل المذهبين، ثم جاء بالوعد والوعيد على الحسنات والسيئات ووكل الأمر في الثواب والعقاب إلى مشيئة الله، وأمثال ذلك مما لا حاجة إلى بيانه في هذه المقدمة.

فاعتبار حكم العقل، مع ورود أمثال هذه المشابهات في النقل، فسح مجالا للناظرين، خصوصاً ودعوة الدين إلى الفكر في المخلوقات لم تكن محدودة بحد ولا مشروطة بشرط، للعلم بأن كل نظر صحيح فهو مؤد إلى الاعتقاد بالله على ما وصفه بلا غلو في التجريد ولا دنو من التحديد [2].

مضى زمن النبي ﷺ وهو المرجع في الحيرة، والسراج في ظلمات الشبهة،وقضى الخليفتان بعده ما قدر لها من العمر في مدافعة الأعداء، وجمع كلمة الأولياء : ولم يكن للناس من الفراغ ما يخلون فيه مع عقولهم ليبتلوها بالبحث في مبانى عقائدهم. وما كان من اختلاف قليل رد إليهما. وقضى الأمر فيه بحكمهما، بعد استشارة من جاورهما من أهل البصر بالدين إن كانت بحاجة إلى الاستشارة، وأغلب الخلاف كان في فروع الأحكام لا في أصول العقائد. ثم

---

(1) قولان. اختار المؤلف في الدرس أولها

(2) الغلو في التجريد مذهب المعطلة منكري الصفات، والدنو من التحديد مذهب المشبهة، وبينهما مذهب السلف الوسط، وهو أن نصفه تعالى بما وصف به نفسه بلا تعطيل. ولا تمثيل ولا تأويل، ويقرب منه مذهب متكلمي الخلف الذين يمنعون التعطيل والتمثيل ؛ دون التأويل لبعض الصفات والأفعال.

كان الناس في الزمنين يتهمون إشارات الكتاب ونصوصه، يعتقدون بالتنزيه، ويفوضون فيها يوم التشبيه، ولا يذهبون وراء ما يفهمه ظاهر اللفظ[1]. كان الأمر على ذلك إلى أن حدث ما حدث في عهد الخليفة الثالث وأفضى إلى قتله. هوى بتلك الأحداث ركن عظيم من هيكل الخلافة واصطدم الإسلام وأهله صدمة زحزحتهم عن الطريق التي استقاموا عليها، وبقي القرآن قائما على صراطه [2] (١٥ : ٩ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) وفتح للناس باب لتعدى الحدود التي حدها الدين، فقد قتل الخليفة بدون حكم شرعي، وأشعر الأمر قلوب العامة أن شهوات تلاعبت بالعقول في أنفس من لم يملك الإيمان قلوبهم، وغلب الغضب على كثير من الغالين في دينهم. وتغلب هؤلاء وأولئك على أهل الأصالة منهم فقضيت أمور على غير ما يحبون.

وكان من العاملين في تلك الفتنة عبد الله بن سبأ: يهودي أسلم وغلا في حب على كرم الله وجهه حتى زعم أن الله حل فيه [3]. وأخذ يدعو إلى أنه الأحق بالخلافة، وطعن على عثمان، فنفاه فذهب إلى البصرة وبث فيها فتنته، فأخرج منها، فذهب إلى الكوفة ونفت ما نفث من سم الفتنة، فنفي منها.

([1]) التحقيق أن السلف كانوا يأخذون في الصفات الإلهية بمعانى الألفاظ في اللغة مع تنزيهه تعالى عن مشابهة شيء من خلقه ؛ فكما أن ذاته ليست كغيرها من الذوات ؛ فكذلك صفاته وأفعاله، ولا يذهبون إلى ما وراء ذلك من لوازم ظاهر اللفظ، كالتشبيه والتحديد المأخوذ من إطلاقه في الأصل على المخلوق. فإن التنزيه قد جعل المشاركة في اللفظ اسمية أو جنسية لا شخصية، كما تقدم في الصفحة السابقة

([2]) أي وقت الصدمة على الإسلام وعلى أهله الذين أحدثوا فيه فأثرت فيهم ولم تؤثر في القرآن الذي كفل الله حفظه فبقى حجة عليهم.

([3]) إن ابن سبأ فعل ما فعل بغضاً في الإسلام لا حبا في على، فإسلامه كان خديعة. وله نظراء في ذلك من اليهود، ومثلهم بعض مجوس الفرس الذين أظهروا الإسلام، وتستروا بالتشيع لعلى ولآل البيت عليهم السلام، كلهم كانوا يقصدون إفساد الإسلام و إزالة ملكه بالتفريق بين أهله وأشار المصنف إلى ذلك فيما ترى في ص ١٤

فذهب إلى الشام فلم يجد فيها ما يريد، فذهب إلى مصر فوجد فيها أعوانا على فتنته. إلى أن كان ما كان ما ذكرناه، ثم ظهر بمذهبه في عهد على، فنفاه إلى المدائن، وكان رأيه جرثومة لما حدث من مذاهب الغلاة من بعده.

توالت الأحداث بعد ذلك، ونقض بعض المبايعين للخليفة الرابع ما عقدوا، وكانت حروب بين المسلمين انتهى فيها أمر السلطان إلى الأمويين. غير أن بناء الجماعة قد انصدع. وانفصمت عرى الوحدة بينهم، وتفرقت بهم المذاهب في الخلافة، وأخذت الأحزاب في تأييد آرائهم، كل ينصر رأيه على رأى خصمه بالقول والعمل، وكانت نشأة الاختراع في الرواية والتأويل وغلا كل قبيل فافترق الناس إلى شيعة وخوارج ومعتدلين، وغلا الخوارج فكفروا من عداهم، ثم استمر عنادهم وطلبهم الحكومة أشبه بالجمهورية، وتكفيرهم لمن خالفهم زمنا طويلا، إلى أن تضعضع أمرهم بعد حروب أكلت كثيراً من المسلمين، وانتشرت فارتهم في أطراف البلاد، ولم يكفوا عن إشعال الفتن، و بقيت منهم بقية إلى اليوم في أطراف أفريقيا و ناحية من جزيرة العرب [1] وغلا

([1]) إنه يعني بهذه البقية. الاباضية الذين في طرابلس الغرب وصحراء الجزائر وزنجبار من أفريقية، وفي عمان من جزيرة العرب. ولكن الاباضية يتبرءون من الخوارج الذين يكفرون من يخالفهم كالصفرية والأزارقة. ويفرقون بين الكفر المخرج من الملة كالشرك وما دونه من الفسق، ويقولون بالإمامة، ولكن لهم تشديداً في قاعدة الولاية والبراءة فيتولون الشيخين وجمع الصحابة الذين كانوا قبل خروج الناس على عثمان وما أنكر عليه الصحابة (رض) وفتنة على ومعاوية. ويقولون إن علياً هو الإمام الحق، وإن معاوية كان باغياً بخروجه عليه ولذلك يخطئون علياً في قبول التحكم في الأمر وهو يعلم أنه صاحب الحق ولهم فيمن قبلوا التحكيم ثلاثة أقوال: البراءة منهم، والوقف فيهم، وثالثها الولاية هم كسائر الصحابة، وهو قول أهل السنة. وهم في تأويل آيات الصفات وأحاديثها بين الأشاعرة و المعتزلة. وأما العمل بالأوامر والنواهى فهم أشد الفرق الإسلامية إذعانا وطاعة لها، كالوهابية من أهل السنة لا يكاد يوجد في بلادهما تارك صلاة أو مانع زكاة أو مجاهر بكبيرة

بعض الشيعة فرفعوا عليا، أو بعض ذريته إلى مقام الألوهية أو ما يقرب منه [1] وتبع ذلك خلاف في كثير من العقائد.

غير أن شيئا من ذلك لم يقف في سبيل الدعوة الإسلامية، ولم يحجب ضوء القرآن عن الأطراف المتنائية عن مثار النزاع. وكان الناس يدخلون فيه أفواجا من الفرس والسوريين ومن.

جاورهم. والمصريين والإفريقيين ومن يليهم، و استراح جمهور عظم من العمل في الدفاع عن سلطان الإسلام، و آن لهم أن يشتغلوا في أصول العقائد والأحكام، بما هداهم إليه لسير القرآن، اشتغالا يحرص فيه على النقل ولا يهمل فيه اعتبار العقل ولا يغض فيه من نظر الفكر ووجد من أهل الإخلاص من انتدب للنظر في العلم والقيام بفريضة التعليم، ومن أشهرهم الحسن البصري، فكان له مجلس للتعليم والإفادة في البصرة يجتمع إليه الطالبون من كل صوب، وتمتحن فيه المسائل من كل نوع وكان قد التحق بالإسلام ولم يتبطنه أناس من من كل ملة، دخلوه حاملين لما كان عندهم، راغبين أن يصلوا بينه وبين ما وجدوه، فثارت الشبهات بعد ما هبت على الناس أعاصير الفتن، واعتمد كل ناظر على ما صرح به القرآن من إطلاق العنان للفكر وشارك الدخلاء، من حق لهم السبق من العرفاء، وبدت رءوس المشاقين، تعلو بين المسلمين.

وكانت أول مسألة ظهر الخلاف فيها مسألة الاختيار واستقلال الإنسان بإرادته وأفعاله الاختيارية، ومسألة من ارتكب الكبيرة ولم يتب. اختلف فيها واصل بن عطاء وأستاذه الحسن البصري واعتزله يعلم أصولا لم يكن أخذها

([1]) منهم الذين رفعوه إلى الألوهية وحده، ومنهم من جعلوها موروثة في بعض ذريته وم الباطنية، ومنهم من قالوا بعصمته وعصمة بعض أفراد ذريته، وغلوا فيهم على درجات مختلفة

عنه، غير أن كثيراً من السلف ومنهم الحسن – على قول – كان على رأى أن العبد مختار في أعماله الصادرة عن علمه وإرادته[1] وقام ينازع هؤلاء أهل الخبر الذين ذهبوا إلى أن الإنسان في عمله الإرادى كأغصان الشجرة في حركاتها الاضطرارية، كل ذلك و أرباب السلطان من بني مروان لايحفلون بالأمر. ولا يعنون برد الناس إلى أصل، وجمعهم على أمر يشملهم ثم يذهب كل إلى ما شاء، سوى أن عمر بن عبد العزيز أمر الزهرى بتدوين ما وصل إليه من الحديث [2] وهو أول من جمع الحديث.

ثم لم يقف الخلاف عند المسألتين السابقتين، بل امتد إلى إثبات صفات المعاني للذات الإلهية أو نفيها عنها، وإلى تقرير سلطة العقل في معرفة جميع الأحكام الدينية. حتى ما كان منها فروعا و عبادات (غلواً في تأييد خطة القرآن أو تخصيص تلك السلطة بالأصول الأولى – على ما سبق بيانه – ثم غالى آخرون– وهم الأقلون – فمحوها بالمرة، وخالفوا في ذلك طريقة الكتاب عناد للأولين، وكانت الآراء في الخلفاء والخلافة تسير مع الآراء في العقائد؛ كأنها مبنى من مباني الاعتقاد الإسلامي.

تفرقت السبل بأتباع واصل[3] وتناولوا من كتب اليونان مالاق بعقولهم، وظنوا من التقوى أن تؤيد العقائد بما أثبته العلم بدون تفرقة بين ما كان منه راجعاً إلى أوليات العقل، وما كان سراباً في نظر الوهم. فخلطوا بمعارف الدين مالا ينطبق على أصل من أصول النظر، ولجوا في ذلك حتى صارت شيعهم تعد

---

(1) بل كان جمهور السلف على هذا، وتبعهم أكثر أهل الحديث

(2) الصواب أنه أمر بذلك أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم. وأما محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى فكان يكتب السنن والآثار من تلقاء نفسه.

(3) م المعتزلة.

بالعشرات أيدتهم الدولة العباسية وهي في ريعان القوة فغلب رأيهم، وابتدأ علماؤهم يؤلفون الكتب، فأخذ المتمسكون بمذاهب السلف يناضلونهم معتصمين بقوة اليقين، وإن لم يكن لهم عضد من الحاكمين.

عرف الأولون من العباسيين ما كان من الفرس في إقامة دولتهم وقلب دولة الأمويين، واعتمدوا على طلب الأنصار فيهم و أعدوا لهم منصات الرفعة بين وزرائهم وحواشيهم – فعلا أمر كثير منهم، وهم ليسوا من الدين في شيء. وكان فيهم المانوية واليزدية ومن لا دين له، وغير أولئك من الفرق الفارسية، فأخذوا ينفثون من أفكارهم ويشيرون بحالهم وبمقالهم إلى من يرى مثل آرائهم أن يقتدوا بهم، فظهر الالحاد، وتطلعت روس الزندقة حتى صدر أمر المنصور بوضع كتب لكشف شبهاتهم، وإبطال مزاعمهم.

فيما حوالى هذا العهد كانت نشأة هذا العلم نبتاً لم يتكامل نموه، وبناء لم يتشامخ علوه، وبدأ علم الكلام كما انتهى مشوباً بمبادىء النظر في الكائنات جرياً على ماسنه القرآن من ذلك.

وحدثت فتنة القول بخلق القرآن أو أزليته [1] وانتصر للأول جمع من خلفاء العباسيين و أمسك عن القول أو صرح بالأزلية عدد غفير من المتمسكين بظواهر الكتاب والسنة، أو المتعففين عن النطق بما فيه مجاراة البدع وأهين في ذلك رجال من أهل العلم والتقوى. وسفكت فيه دماء بغير حق.

---

(1) التحقيق أن كلا من القولين مبدع فوصف القرآن بالقدم والأزلية لا أصل له من الكتاب والسنة، ولم يقل به احد من الصحابة ولا من التابعين ولكنه بني على نظرية في الرد على مبتدعي القول بخلقه من منسكرى صفات الله عز وجل، وهي أن القرآن كلام الله، فهو صفة من صفاته الأزلية، ومن ثم صار القول بقدمه من اصطلاح متكلمى أهل السنة، وأنصار السلف من أهل الحديث ينكرون على متكلمى الأشاعرة أقوالهم في الكلام النفسي واللفظي، وهي فلسفة. ليتها لم تكن، وانظر حاشيتنا الآتية على صفة الكلام.

(م٢ رسالة التوحيد)

وهكذا تعدى القوم حدود الدين باسم الدين.

على هذا كان النزاع بين ما تطرف من نظر العقل. وما توسط أو غلا من الإستمساك بظاهر الشرع، والكل على وفاق على أن الأحكام الدينية واجبة الإتباع : ما تعلق منها بالعبادات والمعاملات وجب الوقوف عنده، وما مس بواطن القلوب وملكات النفوس فرض توطين النفس عليه، وكان وراء هؤلاء قوم من أهل الحلول أو الدهريين طلبوا أن يحملوا القرآن على ما حملوه عند التحافهم بالإسلام وأفرطوا في التأويل، وحولوا كل عمل ظاهر إلى سر باطن، وفسروا الكتاب بما يبعد عن تناول الخطاب، بعد الخطأ عن الصواب، وعرفوا بالباطنية أو الإسماعيلية، ولهم أسماء أخر تعرف في التاريخ، فكانت مذاهبهم غائلة الدين، وزلزال اليقين، وكانت لهم فتن معروفة وحوادث مشهورة.

مع اتفاق السلف وخصومهم في مقارعة هؤلاء الزنادقة وأشياعهم كان أمر الخلاف بينهم جللا، وكانت الأيام بينهم دولا، ولا يمنع ذلك من أخذ بعضهم عن بعض، و استفادة كل فريق من صاحبه، إلى أن جاء الشيخ أبو الحسن الأشعري في أوائل القرن الرابع[1] وسلك مسلكه المعروف وسطاً بين موقف السلف وتطرف من خالقهم، وأخذ يقرر العقائد على أصول النظر، وارتاب في أمره الأولون وطعن كثير منهم على عقيدته، وكفره الحنابلة واستباحوا دمه. و نصره جماعة من أكابر العلماء، كأبي بكر الباقلاني وإمام الحرمين، والإسفراينى وغيرهم [2] وسموا رأيه بمذهب أهل السنة والجماعة [3] فانهزم من بين أيدي

([1]) ولد سنة ٢٧٠ وقيل، ٢٦٠ وتوفي سنة ٣٣٠ ونيف وقيل : ٣٢٤.

([2]) أي نصره هؤلاء بعد موته.

([3]) راجت هذه التسمية بعلو جاه هؤلاء النظار عند الخلفاء و الأمراء وكثرة اتباعهم من العلماء. وقد كان الأشعرى معتزليا فرجع إلى مذهب أهل السنة في أهم مسائل الخلاف بينهم و بين المعتزلة. ثم انتهى إلى

هؤلاء الأفاضل قوتان عظيمتان قوة الواقفين عند الظواهر، وقوة الغالين في الجري خلف ما تزينه الخواطر. ولم يبق من أولئك وهؤلاء بعد نحو (من) قرنين إلا فئات قليلة في أطراف البلاد الإسلامية.

غير أن الناصرين لمذهب الأشعري بعد تقريرهم ما بنى رأيه عليه من نواميس الكون أوجبوا على المعتقد أن يوقن بتلك المقدمات ونتائجها كما يجب عليه اليقين بما تؤدي إليه من عقائد الإيمان. ذهاباً منهم إلى أن عدم الدليل يؤدي إلى عدم المدلول، ومضى الأمر على ذلك إلى أن جاء الإمام الغزالي والإمام الرازي ومن أخذ مأخذهما فخالفوهم في ذلك، وقرروا أن دليلا واحداً أو أدلة كثيرة قد يظهر بطلانها، ولكن قد يستدل على المطلوب بما هو أقوى منها. فلا وجه للحجر في الاستدلال.

أما مذاهب الفلسفة فكانت تستمد آراءها من الفكر المحض، ولم يكن من هم أهل النظر من الفلاسفة إلا تحصيل العلم، والوفاء بما تندفع إليه رغبة العقل من كشف مجهول أو استكناه معقول، وكان يمكنهم أن يبلغوا من مطالبهم ما شاموا وكان الجمهور من أهل الدين يكنفهم بحمايته، ويدع لهم من إطلاق الارادة ما يتمتعون به في تحصيل لذة عقولهم و إفادة الصناعة و تقوية أركان النظام البشرى بما يكشفون من مساتير الأسرار المكنونة في ضمائر الكون ما أباح الله لنا أن تتناوله بعقولنا وأفكارنا في قولة (٢ : ٢٩ خلق لك ما في الأرض جميعاً) إذ لم يستثن من ذلك ظاهراً ولا خفياً. وما كان عاقل من عقلاء المسلمين لياخذ عليهم الطريق أو يضع العقاب في سبيلهم إلى ماهدوا إليه بعد ما رفع القرآن من شأن العقل وما وضعه من المكانة بحيث ينتهي إليه أمر

مذهب السلف من كل وجه، وصرح باتباع الإمام أحمد بن حنبل، كما ترى في كتابه الإبانة. وكذلك كبار النظار من أنصاره كإمام الحرمين وقبله والده الإمام الجويني وبعدهما الغزالى ثم الرازى.

السعادة والتميز بين الحق والباطل والضار والنافع وبعد ما صح من قوله عليه السلام "أنتم أعلم بشئون دنياكم" [1] وبعد ما سن لنا في غزوة بدر من ستة الأخذ بما صدق من التجارب وصح من الآراء.

لكن يظهر أن أمرين غلبا على غالبهم (الأول) الإعجاب بما نقل إليهم عن فلاسفة اليونان، خصوصاً أرسطو وأفلاطون ووجدان اللذة في تقليدهما لبادىء الأمر (والثاني) الشهوة الغالبة على الناس في ذلك الوقت، وهو أشأم الأمرين : زجوا بأنفسهم[2] في المنازعات التي كانت قائمة بين أهل النظر في الدين، واصطدموا. بعلومهم في قلة عددهم مع ما انطبعت عليه نفوس الكافة[3] فمال حماة العقائد عليهم. وجاء الغزالى ومن على طريقته فأخذوا جميع ما وجد في كتب الفلاسفة ما يتعلق بالالهيات و ما يتصل بها من الأمور العامة وأحكام الجواهر والأعراض ومذاهبهم في المادة وتركيب الأجسام وجميع ماظنه المشتغلون بالكلام يمس شيئاً من مباني الدين واشتدوا في نقده. و بالغ المتأخرون منهم في تأثرهم حتى كاد يصل بهم السير إلى ما وراء الاعتدال، فسقطت منزلتهم من النفوس، ونبذتهم العامة، ولم تحفل بهم الخاصة، وذهب الزمان بما كان ينتظر العالم الإسلامي من سعيهم.

هذا هو السبب في خلط مسائل الكلام بمذاهب الفلسفة في كتب

---

(1) رواه مسلم من حديث انس وعائشة بلفظ "بأمر دنياكم".

(2) استئناف البيان ثاني الأمرين وكونه أشأمهما حاصله أن الفلاسفة لو لم يخلطوا قنوتهم بالدين ويزجوا بأنفسهم في المنازعات الدينية لتركوا وشانهم في البحث وإذا لارتقت علومهم وارتقت بها الصناعة واتسع العمران. ذكره المؤلف في الدرس وكان من رأيه أنه يجب ألا تمزج الفلسفة والعلوم الدنيوية بالمسائل الدينية

(3) أى اصطدموا مصاحبين لعلومهم بما انطبعت عليه أنفس الجمهور من المنازعات الدينية.

المتأخرين كما تراه في كتب البيضاوي و العضد وغيرهم[1] وجمع علوم نظرية شتى و جعلها جميعا علية واحدة والذهاب بمقدماته ومباحثه إلى ما هو أقرب إلى التقليد من النظر، فوقف العلم عن التقدم.

ثم جاءت فتن طلاب الملك من الأجيال المختلفة، و تغلب الجهال على الأمر، وفتكوا بما بقي من أثر العم النظري النابع من عيون الدين الإسلامي، فانحرفت الطريق بسالكيها، ولم يعد بين الناظرين في كتب السابقين إلا تحاور في الألفاظ أو تناظر في الأساليب. على أن ذلك في قليل من الكتب اختارها الضعف وفضلها القصور[2].

تم انتشرت الفوضى العقلية بين المسلمين تحت حماية الجهلة من ساستهم فجاء قوم ظنوا في أنفسهم مالم يعترف به العلم لهم، فوضعوا. مالم يعد للإسلام قبل باحتماله. غير أنهم وجدوا من نقص المعارف أنصار، ومن البعد عن ينابيع الدين أعوانا، فشردوا بالعقول عن مواطنها، وتحكموا في التضليل والتكفير، وغلوا في ذلك حتى قلدوا بعض من سبق من الأمم في دعوى العداوة بين العلم والدين وقالوا لما تصف ألسنتهم الكذب: هذا حلال وهذا حرام، وهذا كفر وهذا إسلام. والدين من وراء ما يتوهمون، والله جل شأنه فوق ما يظنون وما يصفون[3] ولكن ماذا أصاب العامة في عقائدهم ومصادر أعمالهم من أنفسهم بعد طول الخبط وكثرة الخلط ؟ شر عظيم، وخطب عميم.

---

(1) الظاهر أن يقال وغيرها أي الكتب، أو غيرهما أي البيضاوي والعضد، ولعله كان ذكر غيرهما فسقط من النسخ ولا أذكر أنه صحيحه في الدرس ولم أجده في الجدول الذي صح و نقح به الطبعة الأولى

(2) يعني أن المتأخرين أساءوا في اختيار كتب من قبلهم وكانت طريقتهم في التدريس البحث في ألفاظها وأساليبها، دون تحرير مسائل العلم و تحقيقها، وكان يقول فيهم : إنهم يتعلمون كتباً لا علما.

(3) راجع ترجمة الأشعري في الطبقات الكبرى للسبكي.

هذا مجمل من تاريخ هذا العلم[1] ينبك كيف أسس على قواعد من الكتاب المبين، وكيف عبثت به في نهاية الأمر أيدي المفرقين، حتى خرجوا به عن قصده، و بعدوا به عن حده.

والذي علينا اعتقاده أن الدين الإسلامى دين توحيد في العقائد لا دين تفريق في القواعد، العقل من أشد أعوانه والنقل من أقوى أركانه، وما وراء ذلك فنزغات شياطين. وشهوات سلاطين، والقرآن شاهد على كل بعمله، قاض عليه في صوابه و خطله.

الغاية من هذا العلم القيام بفرض بجمع عليه وهو معرفة الله تعالي بصفاته الواجب ثبوتها له مع تنزيهه عما يستحيل اتصافه به، والتصديق برسله على وجه اليقين الذي تطمئن به النفس اعتماداً على الدليل لا استرسالا مع التقليد، حسبما أرشدنا إليه الكتاب، فقد أمر بالنظر واستعمال العقل فيما بين أيدينا من ظواهر الكون وما يمكن النفوذ إليه من دقائقه، تحصيلا لليقين ما هدانا إليه، ونهانا عن التقليد بما حكي عن أحوال الأمم في الأخذ بما عليه آباؤهم. و تبشيع ما كانوا عليه من ذلك، واستتباعه لهدم معتقداتهم وإمحاء وجودهم الملى،و حق ما قال، فإن التقليد كما يكون في الحق يأتي في الباطل، وكما يكون في النافع يحصل في الضار، فهو مضلة يعذر فيها الحيوان، ولا تجمل محال الإنسان.

---

(1) فات المؤلف أن يذكر في هذه الخلاصة التاريخية أنه بعد أن استفحل سلطان الأشعرية في القرون الوسطى وضعف أهل الحديث متبعو السلف ظهر في القرن الثامن المجدد العظيم شيخ الإسلام أحمد تقي الدين بن تيمة الذي لم يأت الزمان له بنظير في الجمع بين العلوم التقلية والعقلية وقوة الحجة.. فنصر مذهب السلف على المذاهب الكلامية كلها ببرهان العقل والنقل، وقد أحيت مصر والهند كتبه وكتب تلميذه الأكبر العلامة ابن القيم بعد أن كان الاهتداء بها محصوراً في بلاد نجد، وهي الآن تعم الشرق والغرب، وستكون عمدة جميع مسلمي الأرض

أقسام المعلوم

يقسمون المعلوم إلى ثلاثة أقسام: ممكن لذاته، وواجب لذاته، ومستحيل لذاته[1] ويعرفون المستحيل بما عدمه لذاته من حيث هي، أما الواجب فهو ما كان وجوده لذاته من حيث هي. والممكن مالا وجود له ولا عدم من ذاته، وإنما يوجد لموجد ويعدم لعدم سبب وجوده. وقد يعرض له الوجوب والاستحالة لغيره – وإطلاق المعلوم على المستحيل ضرب من المجاز. فإن المعلوم حقيقة لابد أن يكون له كرن في الواقع ينطبق عليه العلم، والمستحيل ليس من هذا القبيل ما تراه في أحكامه، وإنما المراد ما يمكن الحكم عليه، وإن في صورة يخترعها له العقل ليتوصل بها إلى الحكاية عنه.

(1) هذه القسمة عقلية وهي للحصر. لأن ما يتعلق به العلم إما ثابت قطعا لا يقبل الانتفاء لذاته وهو الواجب، وإما ضده وهو المستحيل وإما واسطة بينهما وهو مالا تقتضي ذاته الثبوت ولا الانتفاء، بل يجوز لها الأمران بحسب العلل و هو الممكن. فمعني كون الشيء ممكنا أو مستحيلا أو واجبة لذاته هو كونه كذلك لغير علة اقتضت ذلك غير ذاته وحقيقته أي إن ذاته إذا تصورت مجردة من كل اعتبار لم تكن إلا كذلك، والمراد بالإمكان والوجوب والاستحالة ما كان كذلك يحكم العقل القاطع لا العادة، فمثال المستحيل: اجتماع النقيضين، ككون الشيء موجودا معدوماً في آن واحد أى موجودا غير موجود فهذا معلوم أى متعلق للعلم – يجزم العقل بعدمه أى عدم تحققه لذاته، أي إن ذاته لا يمكن أن تكون ثابتة، وليس منه مشى الإنسان على الماء، أو طير انه في الهواء. وإنما هذا مستحيل عادة، ومثال الواجب الوجود المطلق والزوجية الأربعة فإنك لا يمكنك أن تمرر الدم المحض.ولا كون الأربعة ليست زوجا. ومثال الممكن ظاهر. فإن جميع هذه الموجودات التي ندركها بحواسنا ممكنة الوجود،كما يعلم ما يأتي في الرسالة.

حكم المستحيل

وحكم المستحيل لذاته: أن لا يطرأ عليه وجود، فإن العدم من لوازم ماهيته [1] من حيث هي فلو طرا الوجود عليه السلب لازم الماهية من حيث هي عنها، وهو يؤدي إلى سلب الماهية عن نفسها [2] بالبداهة فالمستحيل لا يوجد فهو ليس بموجود قطعاً، بل لا يمكن للعقل أن يتصور له ماهية كائنة [3] كما أشرنا إليه. فهو ليس بموجود لا في الخارج ولا في الذهن.

---

(1) يفسرون الماهية بأنها ما به الشيء هو هو، ونوضح ذلك بقولنا إن ماهية الشيء ترادف حقيقته في الجملة، مثال ذلك : أن ما يتصوره الذهن من معنى الإنسانية الكلي الذي يوجد في كل إنسان غير مصاب بعلة ككونه حيواناً ناطقا عاقلا يسعى ماهية الإنسان وحقيقته، ولكن تختلف التسمية باختلاف الاعتبار فما يتعلق في الذهن من معنى الشيء الذي تقوم به ذاته ويجاب به إذا سئل عنه بما هو ذلك الشيء ؟ يسمى ماهية وإنما يسمى حقيقة أو ذاتا باعتبار تحققه في الواقع. ولذلك يطلق لفظ الماهية على مالا تحقق له كمفهوم العنقاء ولا يطلق عليه لفظ الحقيقة، ولازم الشيء مالا ينفك عنه كلزوم الانقسام إلى متساويين للزوج.

وكلمة الماهية و تفسيرها والسؤال عن الشيء بما هو وما خصوه به واشترطوه في جوابه كل ذلك من اصطلاح علم المنطق لا من أهل اللغة. فالعرب تقول ما كذا ؟ لا ما هو كذا، وقد يجيبون عنه بأي صفة تميز الشيء المسئول عنه عن غيره.

(2) قال المؤلف : إن هذا من القضايا التي قياساتها معها لأن سلب اللازم إنما يكون بسلب الملزوم، وهو كون الماهية هي، أي فهو كسلب الانقسام إلى متساويين عن عدد الزوج وهو نفي لكونه زوجا فكأنك قلت : إنه زوج غير زوج.

(3) يريد هذا أن ما ذكر من ماهية المستحيل هو أمر اعتبارى أو فرضى يخترعه العقل لأجل الحكاية عنه كما تقدم في الرسالة قريبا لا لأن له تحققا في نفسه. فالحق أن المستحيل ليس له ماهية ثابتة في الذهن ولا حقيقة في الخارج، أما الثاني فلاءن ما في الخارج هو الموجود بالفعل والمستحيل لا يوجد، وأما الأول فلاءن ما في الذهن لا يكون الا صورة لما في الخارج منه ولذلك قال : فهو ليس بموجود الخ أي بل هو أمر فرضى أو اعتبارى.

أحكام الممكن

من أحكام الممكن لذاته أن لا يوجد إلا بسبب وأن لا ينعدم إلا بسبب، وذلك لأنه لا واحد من الأمرين له لذاته، فنسبتهما إلى ذاته على السواء. فإن ثبت له أحدهما بلا سبب لزم رحجان أحد المتساويين على الآخر بلا مرجح وهو محال بالبداهة [1].

ومن أحكامه. أنه إن وجد يكون حادثة لأنه قد ثبت أنه لا يوجد إلا بسبب، فإما أن يتقدم وجوده على وجود سبه أو يقارنه أو يكون بعده، والأول باطل وإلا لزم تقدم المحتاج على ما إليه الحاجة، وهو إبطال لمعنى الحاجة، وقد سبق الاستدلال على ثبوتها فيؤدي إلى خلاف المفروض، والثاني كذلك وإلا لزم تساويهما في رتبة الوجود[2]، فيكون الحكم على أحدهما بأنه أثر والثاني مؤثر ترجيحاً بلا مرجح وهو مما لا يسوغه العقل، على أن علية أحدهما ومعلولية الآخر رجحان بلا نرجح وهو محال بالبداهة، فتعين الثالث وهو أن يكون وجوده بعد وجود سببه، فيكون مسبوقا بالعدم في مرتبة وجود السبب فيكون حادثاً. إذ الحادث ما سبق وجوده بالعدم فكل عن حادث.

الممكن يحتاج في عدمه إلى سبب وجودي لأن العدم سلب، والسلب لا

---

(1) أي لأنه جمع بين النقيضين إذ معناه أنهما متساويان غير متساويين في آن واحد، فهو من القضايا التي قياساتها معها

(2) أي إن وجوده قبل سببه يؤدي إلى الجمع بين النقيضين وهو كونه أي الممكن محتاجها في وجوده إلى السبب غير محتاج إليه. وقوله : والثاني كذلك ظاهر. فإن وجود الشيء مع وجود سببه من غير سبق السبب على المسبب يقتضي أن ما فرض سبباً لا يكون سبباً وأن الممكن محتاج إلى السبب غير محتاج إليه وهو تناقض ظاهر، وقوله : وإلا لزم تساويهما في رتبة الوجود. مثاله : أن يوجد الأب والابن أى يولدا في وقت واحد. ومن البديهي أن الشخصين اللذين يولدان في وقت واحد لا يمكن أن يكون أحدهما أبا والآخر ابنا.

يحتاج إلى إيجاد بداهة، فيكون عدم الممكن لعدم التأثير فيه أو لعدم ما كان سبباً في بقائه، أما في وجوده فيحتاج إلى سبب وجودى ضرورة، لأن العدم لا يكون مصدراً للوجود، فالموجود إن حدث فإنما يكون حدوثه بإيجاد. وذلك كله بديهى.

كما يحتاج الممكن إلى السبب في وجوده ابتداء يحتاج إليه في البقاء لما بينا أن ذات الممكن لا تقتضى الوجود ولا يرجع لها الوجود عن العدم[1] إلا للسبب الخارجي الوجودى، فذلك لازم من لوازم ماهية الإمكان لا يفارقها من حيث هي فلا يكون للممكن حالة يقتضي فيها الوجود لذاته، فيكون في جميع أحواله محتاجا إلى مرجع الوجود عن العدم، لا فرق بين الابتداء والبقاء.

معنى السبب على ما ذكرنا : منشأ الإيجاد ومعطى الوجود، وهو الذي يعبر عنه بالموجد و بالعلة الموجدة وبالعلة الفاعلة و بالفاعل الحقيقي ونحو ذلك من العبارات التي تختلف مبانيها ولا تتباين معانيها، وقد يطلق السبب أحياناً على الشرط أو المعد الذي يهيئ الممكن لقبول الإيجاد من موجده. وهو بهذا المعنى قد يحتاج إليه في الابتداء ويستغني عنه في البقاء، وقد تكون الحاجة إلى وجوده ثم عدمه، ومن هذا القبيل وجود البناء فإنه شرط في وجود البيت وقد يموت البناء ورق بناؤه. وليس البناء واهب الوجود للبيت وإنما حركات يديه وحركات ذهنه وأطوار إرادته شرط لوجود البيت على هيئته الخاصة به وبالجملة فيوجد فرق بين توقف الممكن على شيء وبين استفادته الوجود من شيء. فالتوقف قد يكون على وجود ثم عدم كما في توقف الخطوة الثانية على الأولى، فإن الأولى ليست واهبة الوجود للثانية وإلا وجب وجودها معها مع أن الثانية لا توجد إلا إذا انعدمت الأولى، وأما استفادة الوجود فتقتضى سبق مالك

---

(1) هذا تعبير كلامى لبعضهم. والترجيح يتعدى بعلي.

للوجود يعطيه للمستفيد منه وأن يكون وجود المستفيد مستمداً من وجود الواهب لا يقوم إلا به فلا يستقل بنفسه دونه في حال من الأحوال.

الممكن موجود قطعاً

نرى أشياء توجد بعد أن لم تكن و أخرى تنعدم بعد أن كانت كأشخاص النباتات والحيوانات: فهذه الكائنات إما مستحيلة أو واجبة أو ممكنة. لا سبيل إلى الأول لأن المستحيل لا يطرأ عليه الوجود، ولا إلى الثاني لأن الواجب له الوجود من ذاته [1] وما بالذات لا يزول، فلا يطرأ عليه العدم، ولا يسبقه كما سيجيء في أحكام الواجب فهى ممكنة، فالممكن موجود قطعاً.

وجود الممكن يقتضي بالضرورة وجود الواجب

جملة الممكنات الموجودة ممكنة بداهة، وكل ممكن محتاج إلى سبب يعطيه الوجود، فجملة الممكنات الموجودة محتاجة بتمامها إلى موجد لها، فإما أن يكون عيبها وهو محال لاستلزامه تقدم الشيء على نفسه، وإما أن يكون جزأها وهو محال لاستلزامه أن يكون الشيء سبباً لنفسه ولما سبقه إن لم يكن الأول، ولنفسه فقط إن فرض أول وبطلانه ظاهر، فوجب أن يكون السبب وراء جملة الممكنات، والموجود الذي ليس بممكن هو الواجب إذ ليس وراء الممكن إلا المستحيل. والواجب والمستحيل لايوجد فيبقى الواجب، فثبت أن للممكنات الموجودة موجداً واجب الوجود[2].

وأيضا الممكنات الموجودة سواء كانت متناهية أو غير متناهية قائمة

---

(1) قوله " له الوجود من ذاته " جملة هي خبر أن.

(2) هذه هي نتيجة تلك المقدمات كلها. وملخصها : أن المستحيل لا يوجد والممكن موجود بالفعل ويوجد دائما ووجوده يدل على وجود الواجب قطعاً، لأنه هو الذي يعطيه الوجود إذ لا وجود له من ذاته.

بوجود، فذلك الوجود إما أن يكون مصدره ذات الإمكان وماهيات الممكنات وهو باطل، لما سبق في أحكام الممكن من أنه لاشيء من الماهيات الممكنة بمقتض للوجود، فتعين أن يكون مصدره سواها وهو الواجب بالضرورة.

أحكام الواجب

القدم والبقاء ونفي التركيب

من أحكام الواجب : أن يكون قديماً أزلياً لأنه لو لم يكن كذلك لكان حادثا، والحادث ما سبق وجوده بالعدم فيكون وجوده مسبوقا بعدم، وكل ما سبق بالعدم يحتاج إلى علة تعطيه الوجود والإلزام رجحان المرجوح بلا سبب وهو محال، فلو لم يكن الواجب قديماً لكان محتاجا في وجوده إلى موجد غيره، وقد سبق أن الواجب ما كان وجوده لذاته فلا يكون ما فرض واجباً واجباً وهو تناقض محال. ومن أحكامه أن لا يطرأ عليه عدم وإلالزم سلب ماهو للذات عنها وهو يعود إلى سلب الشيء عن نفسه وهو محال بالبداهة.

من أحكامه أن لا يكون مركباً إذ لو تركب التقدم وجود كل جزء من أجزائه على وجود جملته التي هي ذاته وكل جزء من أجزائه غير ذاته بالضرورة، فيكون وجود جملته محتاجا إلى وجود غيره. وقد سبق أن الواجب ما كان وجوده لذاته. ولأنه لو تركب لكان الحكم له بالوجود موقوفا على الحكم بوجود أجزائه، وقد قلنا إنه لذاته من حيث هي ذاته ولأنه لا مرجح لأن يكون الوجوب له دون كل جزء من أجزائه بل يكون الوجوب لها أرجح فتكون هي الواجبة دونه نفي التركيب في الواجب شامل لما يسمونه حقيقة عقلية [1] أو خارجية فلا يمكن للعقل أن يحاكي ذات الواجب بمركب فإن الأجزاء العقلية.

([1]) قوله "حقيقة عقلية" مبني على القول بها على سبيل التوضيح وإلا فما يعرف عند علماء المعقول بالحقيقة العقلية لا ثبوت له وقد نفاها المؤلف في الدرس وأثبت أنه ليس وراء الحقائق الخارجية الممكنة إلا إدراكها أي الصور التي ينتزعها الذهن من الوجود الخارجي، وبين في درس المنطق بطلان مذهب أفلاطون في الوجود العقلي ومذهب أرسطو في كون الصور الذهنية هي حقائق هذه الموجودات الخارجية.

لابد لها من منشأ انتزاع في الخارج، فلو تركبت الحقيقة العقلية لكانت الحقيقة مركبة في الخارج وإلا كان ما فرض حقيقة عقلية اعتباراً كاذب الصدق[1] لا حقيقة.

كما لا يكون الواجب مركباً لا يكون قابلا للقسمة[2]، في أحد الامتدادات الثلاث، أي لا يكون له امتداد، لأنه لو قبل القسمة لعاد بها إلى غير وجوده الأول، وصار إلى وجودات متعددة وهي وجودات الأجزاء الحاصلة من القسمة فيكون ذلك قبولا للعدم أو تركبا وكلاهما محال كما سبق

---

(1) قوله "اعتبارا الخ" خبر كان أي تصورا مخترعا لا يصدق على شيء في الواقع. والعبارة عرفية منطقية، لا عربية فصيحة.

(2) سئل المؤلف في الدرس هل يصدق ذلك بالجوهر الفرد بالمعنى الذي يقولونه وهو أنه لا يقبل القسمة فعلا ولا عقلا ولا وهما؟ فقال : إن الجوهر الفرد بهذا المعنى لا حقيقة له ونحن نحمل كلام من يقول بالجوهر الفرد على الجزء الذي لا ينقسم فعلا لشدة صغره وهذا ليس بمراد هنا قطعا اه والموضوع كله من نظريات الفلسفة القديمة الباطلة

الحياة

معنى الوجود وإن كان بديهياً عند العقل ولكنه يتمثل له بالظهور ثم الثبات والاستقرار، وكمال الوجود وقوته بكمال هذا المعنى وقوته بالبداهة.

كل مرتبة من مراتب الوجود تستتبع بالضرورية من الصفات الوجودية ما هو كمال لتلك المرتبة في المعنى السابق ذكره، وإلا كان الوجود لمرتبة سواها وقر فرض لها.

ما يتجلى للنفس من مثل الوجود لا ينحصر وأكمل مثال في أي مراتبه ما كان مقرونا بالنظام والكون على وجه ليس فيه خلل ولا تشويش، فإن كان ذلك النظام بحيث يستتبع وجوداً مستمراً وإن في النوع دل على كمال المعنى الوجودي في صاحب المنال.

فإن تجلت للنفس مرتبة من مراتب الوجود على أن تكون مصدراً لكل نظام كان ذلك عنوانا على أنها أكمل المراتب وأعلاها، وأرفعها وأقواها.

وجود الواجب هو مصدر كل وجود مكن كما قلنا وظهر بالبرهان القاطع، فهو بحكم ذلك أقوى الوجودات وأعلاها. فهو يستتبع من الصفات الوجودية ما يلائم تلك المرتبة العليا، وكل ما تصوره العقل كمالا في الوجود من حيث ما يحيط به من معنى الثبات والاستقرار والظهور وأمكن أن يكون له وجب أن يثبت له [1] وكونه مصدراً للنظام وتصريف الأعمال على وجه لا اضطراب فيه يعد من كمال الوجود كما ذكرنا فيجب أن يكون ذلك ثابتا له،

---

(1) لشيخ الإسلام ابن تيمية رسالة بديعة في إثبات إنصافه تعالى بكل كمال وهي في الجزء الخامس من مجموعة رسائله المطبوعة في مطبعة المنار.

فالوجود الواجب يستتبع من الصفات الوجودية التي تقتضيها هذه المرتبة ما يمكن أن يكون له.

فمهما يجب أن يكون له صفة الحياة وهي صفة تستتبع العلم والإرادة، وذلك أن الحياة مما يعتبر كمالا للوجود بداهة، فإن الحياة مع ما يتبعها مصدر النظام و ناموس الحكمة [1] وهي في أي مراتبها مبدأ الظهور والاستقرار في تلك المرتبة، فهي كمال وجودى ويمكن أن يتصف بها الواجب. وكل كمال وجودى يمكن أن يتصف به وجب أن يثبت له فواجب الوجود حى وان باينت حياته حياة الممكنات فإن ماهو كمال للوجود إنما هو مبدأ العلم والإرادة. ولول م تبت له هذه الصفة [2] لكان في الممكنات ما هو أكل منه وجوداً. وقد تقدم أنه أعلى الموجودات وأكملها فيه.

والواجب هو واهب الوجود وما يتبعه. فكيف لو كان فاقداً للحياة يعطيها ؟ فالحياة له كما أنه مصدرها.

---

(1) دليل فيه إضمار تقديره. وكل ما كان مصدر النظام الخ فهو كمال وجودى فالحياة كمال وجودى.

(2) دليل ثان على ثبوت الحياة لواجب الوجود، وقوله بعده والواجب هو واهب الوجود، دليل ثالث:

العلم

ومما يجب له صفة العلم. ويراد به ما به انكشاف شيء عند من ثبتت له تلك الصفة أي مصدر ذلك الانكشاف منه[1] لأن العلم من الصفات الوجودية التي تعد كمالا في الوجود. و يمكن [2] أن تكون للواجب. وكل ما كان كذلك وجب أن يثبت له، فواجب الوجود عالم ثم البداهة قاضية بأن العلم كمال في الموجودات الممكنة ومن الممكنات من هو عالم، فلو لم يكن الواجب عالم لكان في الموجودات الممكنة ما هو أكمل من الموجود الواجب وهو محال كما قدمنا. ثم هو واهب العلم في عالم الإمكان ولا يعقل أن مصدر العلم يفقده[3].

على الواجب من لوازم وجوده كما ترى فيعلو على العلوم على وجوده عن الوجودات [4] فلا يتصور في العلوم ما هو أعلى منه، فيكون محيطا بكل ما يمكن علمه، وإلا تصور العقل علماً أشمل، وهو إنما يكون لوجود أكمل، وهو محال.

---

(1) بيان لمعنى العلم في اللغة سنذكر معني علمه تعالى في حاشية صفحة ٤٦

(2) كتب المصنف في حاشية نسخة الدرس هنا. أي بالإمكان العام

(3) وكتب هنا : العلم كمال والناقص الفاقد الكمال لا يمكنه أن يهب كمالا بالضرورة، وأما الصفات التي لا تعد كمالا ولا نقصا وهى من خواص الماهيات الحرارة فليست من هذا القبيل، "فيمكن" هبتها مع فقدها أهـ

(4) هكذا اختلفت تعدية العلو" بعلى وعن والعبارة في معنى قول السلف بعلوه تعالى فوق جملة خلقه بائناً منهم "والله من ورائهم محيط"

ما هو لازم لوجود الواجب يغني بغناه[1] ويبقى ببقائه، وعلم الواجب من لوازم وجوده، فلا يفتقر إلى شيء ما وراء ذاته : فهو أزلي أبدى غني عن الآلات وجولات الفكر وأفاعيل النظر، فيخالف علوم الممكنات بالضرورة.

ما يوجد من الممكنات فهو موافق ما انكشف بذلك العلم. وإلا لم يكن علماً.

من أدلة ثبوت العلم للواجب ما نشاهده في نظام الممكنات من الإحكام والإتقان، ووضع كل شيء في موضعه، وقرن كل ممكن بما يحتاج إليه في وجوده وبقائه، وذلك ظاهر لجلى النظر بما يشاهد في الأعيان كبيرها وصغيرها علويها وسفليها، فهذه الروابط بين الكواكب والنسب الثابتة بينها، وتقدير حركاتها على قاعدة تكفل لها البقاء على الوضع الذي قدر لها، وإلزام كل كوكب بمدار لو خرج عنه لاختل نظام عمله أو العالم بأسره، وغير ذلك مما فصل في علوم الهيئة الفلكية – كل ذلك يشهد بعلم صانعه وحكمة مدبره.

اعتبر بما تراه في جزئيات النباتات والحيوانات من توفيتها قواها وايتائها ما تحتاج إليه في تقويم وجودها من الآلات والأعضاء ووضع ذلك في مواضعه من أبدانها، وإيداع غير الحساس منها كالنبات قوة الميل إلى تناول ما يناسبه من الغذاء دون ما يلائمه. فترى بذرة الحنظل تدفن بجوار حبة البطيخ في أرض واحدة ثم تسقى بماء واحد وتنمى بعناية واحدة، ولكن تلك تمتص من المواد مايغذي المر الزعاق، وهذه تتناول ما يغدو حلو المذاق، وإرشاد الحساس منها إلى استعمال ما منح من تلك الأدوات والأعضاء وسوق كل قوة من قواه إلى ما قدرت له. فهو الذي يعلم حالة الجنين وهو نطفة أو علقة ويعلم حاجته

---

(1) غني بالشيء.. اكتفي به و استغنى به عن غيره وفي الطبعة الخامسة بفنائه بالفاء و هو غلط بالطبع. و باطل بالعقل والشرع.

– متى تكامل خلقه وأنشأه نشأة الحي المستقل في عمله – إلى الأيدي والأرجل والأعين و المشام والآذان وبقية المشاعر الباطنة ليستعمل ذلك فيما يقيم وجوده ويقيه من العوادي عليه، وحاجته إلى المعدة والكبد والرئة ونحوها من الأعضاء التي لاغنى عنها في النمو والبقاء إلى الأجل المحدود للشخص أو للنوع.

هو الذي يعلم حالة الجروة من الكلاب مثلا، وأنها متى كبرت تلد أجراء متعددة فيمنحها أطباء[1] كثيرة وغير ذلك ما لا يستطاع إحصاؤه. وقد فصل الكثير منه في كتب النباتات وحياة الحيوان وما يسمى التاريخ الطبيعي وفنون منافع الأعضاء والطب وما يتبعه، على أن الباحثين في كل ذلك بعد ما بذلوا من الجهد وما صرفوا من الهمم، وما كشفوا من الأسرار لم يزالوا في أول البحث.

هذا الصنيع الذي إنما تتفاضل العقول في فهم أسراره والوقوف على دقائق حكمه، ألا يدل على أن مصدره هو العالم بكل شيء؟ الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ؟ هل يمكن لمجرد الاتفاق المسمى بالصدفة [2] أن يكون ينبوعا لهذا النظام ؟ وواضعاً لتلك القواعد التي يقوم عليها وجود الأكوان عظيمها وحقيرها ؟ كلا، بل مبدع ذلك كله هو من لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم.

---

(1) الأجراء. جمع جرو، والأطباء جمع طبي بالكسر. وهي حلمات الضرع.

(2)"الصدفة" كلمة استعملها المولدون ولم تعرف عن العرب وقد استبدل بها المؤلف في تصحيح خطبة شرحه لنهج البلاغة لفظ المصادقة و تركها هنا سهواً أو مراده المسمى في عرف الناس بالصدفة

الإرادة

مما يجب لواجب الوجود الإرادة. وهي صفة تخصص فعل العالم بأحد وجوهه الممكنة[1]

بعد ما ثبت أن واهب وجود الممكنات هو الواجب وأنه عالم، وأن ما يوجد من الممكن لابد أن يكون على وفق علمه ثبت بالضرورة أنه مريد لأنه إنما يفعل على حسب علمه. ثم إن كل موجود فهو على قدر مخصوص وصفة معينة، وله وقت ومكان محدودان، وهذه وجوه قد خصصت له دون بقية الوجوه الممكنة وتخصيصها كان على وفق العلم بالضرورة، ولا معنى للإرادة إلا هذا.

أما ما يصرف من معنى الإرادة وهو ما به يصح للفاعل أن ينفذ ما قصد وأن يرجع عنه فذلك محال في جانب الواجب، فإن هذا المعنى من الهموم الكونية والعزائم القابلة للفسخ، وهي من توابع النقص في العلم، فتتغير على حسب تغير الحكم وتردد الفاعل بين البواعث على الفعل والترك.

---

(1) يعنى الوجوه المتقابلة التي لا تجتمع كما يعلم مما يأتي.

القدرة

ومما يجب له القدرة وهي صفة بها الإيجاد والإعدام. ولما كان الواجب هو مبدع الكائنات على مقتضى علمه وإرادته، فلا ريب يكون قادراً بالبداهة، لأن فعل العالم المريد فيما علم وأراد، إنما يكون بسلطة له على الفعل. ولا معنى للقدرة إلا هذا السلطان.

الاختيار

ثبوت هذه الصفات الثلاث يستلزم بالضرورة ثبوت الاختيار، إذ لا معنى له إلا إصدار الأثر بالقدرة على مقتضى العلم على حكم الإرادة فهو الفاعل المختار، ليس من أفعاله ولا من تصرفه في خلقه ما يصدر عنه بالعلية المحصنة والاستلزام الوجودى بدون شعور ولا إرادة. وليس من مصالح الكون ما يلزمه مراعاته لزوم تكليف بحيث لو لم يراعه لتوجه عليه النقد فيأتيه تنزها عن اللائمة. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. ولكن نظام الكون ومصالحه العظمى إنما تقررت له بحكم أنه أثر الوجود الواجب الذي هو أكمل الوجودات وأرفعها. فالكمال في الكون إنما هو تابع لكمال المكون، وإتقان الإبداع إنما هو مظهر لسمو مرتبة المبدع : وبهذا الوجود البالغ أعلى غايات النظام تعلق العلم الشامل والإرادة المطلقة فصدر ويصدر على هذا النمط الرفيع (٢٣ : ١١٥ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون؟) وهذا هو معنى قولهم: إن أفعاله لا تعلل بالأغراض، ولكنها تنزه عن العبث. ويستحيل أن تخلو من الحكم وإن خفي. شيء من حكمتها عن الأنظار[١]

(١) قد تخفى حكمة الشيء عن البشر زمنا طويلا ثم تظهر كما ثبت كثيراً. وصفة الاختيار تبطل قول القائلين بأن العالم كالآلة الميكانيكية

الوحدة

وما يجب له صفة الوحدة ذاتاً ووصفاً ووجوداً وفعلاً. أما الوحدة الذاتية فقد أثبتناها فيما تقدم بنفي التركيب في ذاته خارجا وعقلا. وأما الوحدة في الصفة، أي أنه لا يساويه في صفاته الثابتة له موجود فلما بينا من أن الصفة تابعة لمرتبة الوجود وليس في الموجودات ما يساوى واجب الوجود في مرتبة الوجود، فلا يساويه فيما يتبع الوجود من الصفات. وأما الوحدة في الوجود وفي الفعل ونعني بها التفرد بوجوب الوجود وما يتبعه من إيجاد الممكنات فهي ثابتة لأنه لو تعدد واجب الوجود لكان لكل من الواجبين تعين يخالف تعين الآخر بالضرورة وإلا لم يتحصل معنى التعدد. وكلما اختلفت التعينات اختلفت الصفات الثابتة للذوات المتعينة. لأن الصفة إنما تتعين وتنال تحققها الخاص بها بتعين ما ثبتت له بالبداهة. فيختلف العلم والإرادة باختلاف الذوات الواجبة، إذ يكون لكل واحدة منها علم وإرادة يباينان علم الأخرى وإرادتها، ويكون لكل واحدة علم وإرادة يلائمان ذاتها وتعينها الخاص بها.

هذا التخالف ذاتي لأن علم الواجب وإرادته لازمان لذاته من ذاته، لا لأمر خارج، فلا سبيل إلى التغير والتبدل فيهما كما سبق، وقد قدمنا أن فعل الواجب إنما يصدر عنه على حسب علمه وحكم إرادته فيكون فعل كل صادراً على حكم يخالف الآخر مخالفة ذاتية. فلو تعدد الواجبون لتخالفت أفعالهم بتخالف علومهم وإراداتهم، وهو خلاف يستحيل معه الوفاق، وكل واحد بمقتضي وجوب وجوده وما يتبعه من الصفات له السلطة على الإيجاد في عامة الممكنات. فكل له التصرف في كل منها على حسب علمه إرادته، ولا مرجح لنفاذ إحدى القدرتين دون الأخرى فتتضارب أفعالهم حسب التضارب في

علومهم وإراداتهم فيفسد نظام الكون، بل يستحيل أن يكون له نظام، بل يستحيل وجود ممكن من الممكنات، لأن وجود كل ممكن لا بد أن يتعلق به الإيجاد على حسب العلوم والإرادات المختلفة، فيلزم أن يكون للشيء الواحد وجودات متعددة وهو محال – فلو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا [1] لكن الفساد ممتنع بالبداهة. فهو جل شأنه واحد في ذاته وصفاته، لا شريك له في وجوده ولا في أفعاله.

(1) تقرر لكون قوله تعالى (٢١، ٢٢ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) برهانا قطعيا لا دليلا إقناعيا كما زعم من لم يفهم الآية و المراد بقوله "يهما"السموات والأرض المذكورتان في آية سابقة قريبة
وهذا الوجه من التوحيد قد ضل فيه بعض البشر فزعموا أن للخير والنور الها وللشر والظلمة إلها. وقال آخرون بعدة أرباب تعبد. وما قبله بحث فلسفي في الوحدة قلما يحتاج إليه أحد في هذا العصر ولا سيما نفي التركيب في الذات إلا إذا عدمنه التثليث عند النصارى و بعض الهندوس وذلك غير ظاهر. وسكت هنا عن التوحيد الأعظم الذي تدل عليه كلمة لا إله إلا الله وهو عبادة الله وحده وعدم عبادة غيره، لأن هذا بحث كلامى فلسفي ولكنه تكلم عليه في مواضع أخرى كالكلام في أفعال العباد وفي الكلام عما جاء به الإسلام بعد بحث الرسالة العامة.

الصفات السمعية التي يجب الاعتقاد بها

ما قدمنا من الصفات التي يجب الاعتقاد بثبوتها لواجب الوجود هي ما أرشد إليه البرهان وجاءت الشريعة الإسلامية وما تقدمها من الشرائع المقدسة لتأييده والدعوة إليه بلسان نبينا محمد ﷺ ولسان من سبقه من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين :

ومن الصفات ما جاء ذكره على لسان الشرع ولا يحيله العقل إذا حمل على ما يليق بواجب الوجود، ولكن لا يهتدي إليه النظر وحده [1] ويجب الاعتقاد بأنه جل شأنه متصف بها اتباعا لما قرره الشرع وتصديقا لما أخبر به.

فن تلك الصفات: صفة الكلام. فقد ورد أن الله كلم بعض أنبيائه و نطق القرآن بأنه كلام الله. فمصدر الكلام المسموع عنه سبحانه لابد أن يكون شأنا من شئونه قديما بقدمه[2] لكن علينا أن نعتقد أن هذا الانكشاف ليس بآلة ولا

([1]) فيه أن النظر العقلي قد اهتدى إليه وبناء على القاعدة التي أشار إليها في الكلام على صفة الحياة، وهي أن كل كمال و جودى محض يجب أن يتصف به واجب الوجود، و فصله ابن تيمية برسالة خاصة

([2]) إن الله تعالى جعل للناس طرقا عامة كالحواس والعقل يكسبون بها العلم كسبا فينالون منه بحسب استعدادهم واجتهادهم. واختص من شاء من المصطفين بعلم ينزله على قلوبهم ويفيضه على أرواحهم بلا كسب منهم فالعلم هو القوة أو الصفة التي تنكشف بها المعلومات للنفس بكسب أو بغير كسب وفيها قوة أخرى تتصرفها في المعلومات وتصورها بصور قابلة لإعلام قابل العلم بها، فيها يتمكن الإنسان من إفادة غيره ما شاء من علمه وهي صفة الكلام، فما كان منه في النفس يسمى كلاما نفسيا و يعبر عنه بالقول والكلام والحديث فيقول قلت في نفسي كذا وحدثتني نفسي وقال عمر يوم السقيفة : زورت في نفسي كلاما – وما تحصل به الإفادة والإعلام بالفعل من قول أو كتابة أو غيرهما ويوجه إلى من يراد إعلامه به فيعلمه يسمى كلاماً لفظياً، وقد استعير لفظ العلم

الذي يستعمله البشر في أنفسهم للعلم الآلهي المحيط بكل شيء، واستعير لفظ الكلام للشان الإلهي الذي به يوحى الله إلى ملائكته ورسله ماشاء من العلم و يكلم من شاء وحيا من وراء حجاب، فقيل. إن لله كلاماً هو صفة له أي شأن من شئونه هو مصدر الوحى وافادة العلم للأنبياء والملائكة، وسمي ما يوحيه إليهم كلاماً أيضا. وليس في اللغة لفظ يعبر به عن ذلك يقوم مقام هذا اللفظ المستعمل في كلام الناس مع العلم بتنزيه كلام الله النفسي عن مشابهة كلام الناس كعلمه وعلمهم وقدرته وقدرتهم. فالكلام النفسي صورة للعلم الذاتي في النفس كما أن العلم صورة للعلوم فيها ولذلك كان كلامه تعالى لا نهاية له كعلمه، فكلام الله صفة ذاتية له تتعلق بكل ما في علمه ويكشف ما شاء من علمه لمن شاء من خلقه وهو التكليم. كما أن علمه صفة ذاتية له تتعلق بكل شيء تعلق انكشاف وإدراك من غير سبق خفاء، فالكلام كمال وجودى محض لو لم يكن الخالق.

ومما ثبت له بالنقل صفة البصر : وهي ما به تنكشف المبصرات = متصفا به لكان ناقصاً (سبحانه) بفقده في الأزل له، ولكان غيره من الموجودات كالانسان أكمل منه على ما سبق بيانه في صفة الحياة تعالى الله عن ذلك. فالكلام هو الوصف الفاصل بين الانسان والحيوان وقد احتج الله على بطلان ألوهية عجل بني إسرائيل بقوله (آفلا يرون ألا يرجع إليهم قولاه ولا يملك لهم ضراً ولانفعاً) وانما الإله الحق هو الذي يملك هدايتهم بكلامه وضرهم ونفعهم بقدرته، ولو خلق الله تعالى في نفس الملك أو النبي علما بما أراد إعلامه به لم يكن صادرا عن كلامه النفسي ومرآة له لما صح أن يسمى هذا العلم كلاما لله تعالى، كما أن سائر علوم الخلق الضرورية التي لا كسب لهم فيها من خلقه تعالى ولا تسمى كلاما له. وكذلك الكسبية بالأولى.

هذا وإن لإيحاء كلامه تعالى إلى الملائكة صورة روحية غير الصورة التي يوحيها الملك للرسول من البشر، والرسول يبلغها للناس بصورة أخرى هي كلامهم اللفظي، والمعنى للكل الذي هو العلم الذي أراد الله تعالى إظهاره عليه واحد لا يتغير باختلاف صوره ولا يصح أن يعزى إلى غيره فالشاعر الذي علم أن كل شيء ماخلا الله باطل (لأنه لا وجود له ولا بقاء بذاته لذاته) وأن كل نعيم في الدنيا زائل، وتمثل له هذا المعني بقوله.

ألا كل شيء ماخلا الله باطل وكل نعم لا محالة زائل

قد نطق هذا البيت بلفظه، بعد أن تمثل في نفسه، ثم تناقله عنه الناس بألسنتهم وخطوطهم قرناً بعد قرن، وكلهم يعزونه إليه وأنه من كلامه، وأن النطق به وكتابته الآن لا ينفي أنه كلام له قيل منذ بضعة عشر قرناً – فهذا أوضح مثال لكون القرآن كلام الله الذي أوحاه إلى مُحَمَّد رسوله صلى الله عليه وسلم صادرا عن كلامه النفسي، وأن حدوث الوحي به قبل الهجرة بثلاث عشرة سنة وتلاوته بالألسنة وكتابته وطبعه =

جارحة ولا حدقة ولا باصرة كما هو معروف لنا [1].

وصفة السمع،وهي ما به تنكشف المسموعات، فهو السميع البصيره.

في المصاحف قرنا بعد قرن لا ينافي كونه هو كلامه وأنه قديم بقدمه، على أن السلف لم يقولوا إنه قديم لأن نص الشارع لم يرد به وقد أغلظوا النكير على من قالوا إنه مخلوق وحادث بشبهة حدوث إيحائه وتنزيله و تلاوته، لأن الحامل لهم عليه إنكار صفات الله تعالى جملة وتفصيلا بشبهة استلزام إثباتها لتعدد القدماء، وهي نظرية فلسفية مخترعة باطلة وضعوها وحكموها في صفات الله تعالى وكلامه المنزل غلوا في التنزيه انتهى بهم إلى جعله عز وجل ماهية خيالية سلبية فاقدة لكل صفات الوجود، و كذا نظرية امتناع قيام الحادث بالقديم، وإنما التنزيه الصحيح أنه تعالى موجود منصف بجميع صفات الكمال الوجودية، ومنها الكلام والتكليم،بغير تعطيل ولا تمثيل. وقد اهتدى البشر إلى بيان ما في أنفسهم من الكلام لمن يريدون إعلامه بمعناه بطريقة سريعة خفية يكلم بها المرء غيره وهو يبعد عنه ألوفا من الأميال بلا صوت وذلك ما يعرف بالتلغراف السلكي و اللاسلكي، وما يؤدى به يسمى كلاما أيضا، فهذا أظهر مثال يضرب للوحي، وتنزيه كلام الله عن مشابهة كلام الخلق، ثم اهتدوا إلى اختراع آلة أخرى تنقل الأصوات والكلام من قطر إلى قطر وإن بعدت المسافات سموها الراديو وسميناها المذياع

وقد حذفنا من هذا الموضع نحو صفحة من الرسالة في مسألة الخلاف في خلق القرآن عملا بأمر المؤلف إذ كتب بخطه في طرة نسخته ما نصه في الطبعة الثانية يحذف القول في خلق القرآن، و بين لنا السبب في ذلك في الدرس فقال إنه التزم في الرسالة مذهب السلف وهذه المسألة من البدع التي ليست من مذهبهم وكان الذي ذكره بذلك الشيخ محمد محمود الشنقيطي "رح" فأذعن وذكر ذلك في الدرس وقد نوهنا بذلك في مقالة للمنار عنوانها "سجايا العلماء" وما شرحناه تصوير للحقيقة المثبتة لمذهب السلف الداحضة لبدعة المعتزلة بما يقبله العقل والوجدان السليمان ولله الحمد.

(1) وكذلك علمه تعالى ليس بآلة الدماغ ولا بوجدان القلب.

كلام في الصفات إجمالا

أبتدىء الكلام فيا أقصد بذكر حديث إن لم يصح فكتاب الله بجملته وتفصيله يؤيد معناه وهو قوله ﷺ "تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا"[1].

إذا قدرنا عقل البشر قدره وجدنا غاية ما ينتهي إلى كماله إنما هو الوصول إلى معرفة عوارض بعض الكائنات التي تقع تحت الإدراك الإنساني حساً كان أو وجدانا أو تعقلا، ثم التوصل بذلك إلى معرفة مناشئها، و تحصيل كليات لأنواعها، والإحاطة ببعض القواعد العروض ما يعرض لها. وأما الوصول إلى كنه[2] حقيقة ما فمهما لا تبلغه قوته. لأن اكتناه المركبات[3] إنما هو باكتناه ما

([1]) الحديث ورد بألفاظ يتفق معناها قال الحافظ العراق في تخريج أحاديث الأحياء : روى أبو نعيم في الحلية المرفوع منه بإسناد ضعيف، ورواه الأصبهاني في الترغيب والرهيب من وجه آخر أصح منه، ورواه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر وقال هذا إسناد فيه نظر. قلت : فيه الوازع بن نافع متروك اهـ زاد الزبيدي في الشرح. قلت : حديث ابن عمر لفظه "تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله" هكذا رواه ابن أبي الدنيا في كتاب التفكر وأبو الشيخ في العظمة والطبراني في الأوسط وابن عدى وابن مردويه والبيهقي وضعفه والأصبهاني وابو نصر في الإبانة وقال غريب ورواه أبو الشيخ من حديث ابن عباس، تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق فإنكم لا تقدرون قدره ورواه ابن النجار والرافعي من حديث أبي هريرة "تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله"، الخ و تعدد هذه. الروايات واجتماعها يكسبها قوة والمعنى صحيح. كما قال الجاحظ السخاوى في المقاصد الحسنة.

([2]) كنه الشيء: جوهره وحقيقته وغايته ومعرفة الكنه هي معرفة الإحاطة التي ليس وراءها غاية يبحث عنها.

([3]) الاكتناه معرفة الكنه، مثال ذلك اكتناه الماء هو معرفة ما تركب منه، وهو عنصران بسيطان بحسب ما وصل إليه علم من اكتشف هذا التركيب، يسمونها الأوكسجين والادروجين، فتقول الماء سائل شفاف مركب من الأوكسجين والأدروجين على نسبة معينة. فيشبه هذا أو يقرب أن يكون اكتناها لهذا المركب لمن اكتنه جزأيه ولكن اكتناه البسيط كالأدروجين مما لا سبيل إليه كما قال المصنف.

تركبت منه، وذلك ينتهي إلى البسيط الصرف وهو لا سبيل إلى اكتناهه بالضرورة وغاية ما يمكن عرفانه منه هو عوارضه وآثاره.

خذ أظهر الأشياء وأجلاها كالضوء، قرر الناظرون فيه له أحكاما كثيرة فصلوها في علم خاص به ولكن لم يستطع ناظر أن يفهم ما هو ولا أن يكتنه معنى الإضاءة نفسه، وإنما يعرف من ذلك ما يعرفه كل بصير له عينان، وعلى هذا القياس.

ثم إن الله لم يجعل للإنسان حاجة تدعو إلى اكتناه شيء من الكائنات، وإنما حاجته إلى معرفة العوارض والخواص، ولذة عقله إن كان سليما إنما هي تحقيق نسبة تلك الخواص إلى ما اختصت به وإدراك القواعد التي قامت عليها تلك النسب، فالاشتغال بالاكتناه إضاعة للوقت وصرف للقوة إلى غير ما سيقت إليه.

اشتغل الإنسان بتحصيل العلم بأقرب الأشياء إليه وهي نفسه: أراد أن يعرف بعض عوارضها وهل هى عرض أو جوهر؟ هل هي قبل الجسم أو بعده ؟ هل هي فيه أو مجردة عنه ؟ كل هذه الصفات لم يصل العقل إلى إثبات شي منها يمكن الاتفاق عليه، وإنما مبلغ جهده أنه عرف أنه موجود حي له شعور وإرادة، وكل ما أحاط به بعد ذلك من الحقائق الثابتة فهو راجع إلى تلك العوارض التي وصل إليها ببديهته أماكنه شيء من ذلك. وبل وكيفية اتصافه بعض صفاته فهو مجهول عنده ولا يجد سبيلا للعلم به

هذا حال العقل الإنساني مح ما بساويه في الوجود أو ينحط عنه. بل كذلك شأنه فيما يظن من الأفعال أنه صادر عنه كالفكر. وارتباطه بالحركة والنطق، فما يكون من أمره بالنسبة إلى ذلك الوجود الأعلى ؟ ماذا يكون دهشه بل انقطاعه إذا وجه نظره إلى مالا يتناهي من الوجود الأزلى الأبدي ؟،

النظر في الخلق يهدي بالضرورة إلى المنافع الدنيوية ويضيء للنفس طريقها إلى معرفة من هذه آثاره، وعليها تجلت أنواره، وإلى اتصافه بما لولاه لما صدرت عنه هذه الآثار على ما هى عليه من النظام، و تخالف الأنظار في الكون إنما هو من تصارع الحق والباطل ولابد أن يظفر الحق ويعلو على الباطل بتعاون الأفكار أو صولة القوى منها على الضعيف.

وأما الفكر في ذات الخالق : فهو طلب للاكتناه من جهة و هو ممتنع على العقل البشري لما علمت من انقطاع النسبة بين الوجودين ولاستحالة التركب في ذاته، وتطاول إلا مالا تبلغه القوة البشرية من جهة أخرى، فهو عبث ومهلكة : عبث لأنه سعى إلا مالا يدرك، ومهلكة لأنه يؤدي إلى الخبط في الاعتقاد، لأنه تحديد ما لا يجوز تحديده، وحصر ما لا يصح حصره.

لا ريب أن هذا الحديث وما أتينا عليه من البيان كما يأتي في الذات من حيث هي يأتي فيها مع صفاتها. فالنهي واستحالة الوصول إلى الاكتناه شاملان لها، فيكفينا من العلم بها أن نعلم أنه متصف بها، وأما ما وراء ذلك فهو مما يستأثر هو بعلمه ولا يمكن لعقولنا أن تصل إليه، ولهذا لم يأت الكتاب العزيز وما سبقه من الكتب إلا بتوجيه النظر إلى المصنوع لينفذ منه إلى معرفة وجود الصانع وصفاته المالية وأما كيفية الاتصاف فليس من شأننا أن نبحث فيها.

فالذي يوجبه علينا الإيمان هو أن نعلم أنه موجود لا يشبه الكائنات، أزلى أبدى حى عالم مريد قادر، متفرد في وجوب وجوده، وفي كمال صفاته، وفي صنع خلقه. وأنه متكلم سميع بصير، وما يتبع ذلك من الصفات التي جاء الشرع بإطلاق أسمائها عليه.

أما كون الصفات زائدة على الذات، وكون الكلام صفة غير ما اشتمل عليه العلم من معاني الكتب السماوية. وكون السمع والبصر غير العلم

بالمسموعات والمبصرات، ونحو ذلك من الشئون التي اختلف فيها النظار، و تفرقت فيها المذاهب. فمهما لا يجوز الخوض فيه، إذ لا يمكن لعقول البشر أن تصل إليه، و الاستدلال على شيء منه بالألفاظ الواردة ضعف في العقل، وتغرير بالشرع، لأن استعمال اللغة لا ينحصر في الحقيقة، ولئن انحصر فيها فوضع اللغة لا تراعي فيه الوجودات بكنها الحقيقي – وإنما تلك مذاهب فلسفة إن لم يضل فيها أمتلهم فلم يهتد فيها فريق إلى مقنع، فا علينا إلا الوقوف عند ما تبلغه عقولنا , وأن نسأل الله أن يغفر لمن آمن به وبما جاء به رسله من تقدمنا من الخاضعين.

أفعال اللّه جل شأنه

أفعال الله صادرة عن علمه وإرادته كما سبق تقريره، وكل ما صدر عن علم وإرادة فهو عن الاختيار، ولا شيء مما يصدر عن الاختيار بواجب على المختار لذاته، فلا شيء من أفعاله بواجب الصدور عنه لذاته فجميع صفات الأفعال من خلق ورزق وإعطاء ومنع وتعذيب وتنعيم ما يثبت له تعالى بالإمكان الخاص [1] فلا يطوفن بعقل عاقل بعد تسليم أنه فاعل عن علم وإرادة أن يتوهم أن شيئا من أفعاله واجب عنه لذاته كما هو الشأن في لوازم الماهيات أو في اتصاف الواجب بصفاته مثلا – فإن ذلك هو التناقض البديهى الاستحالة كما سبق الإشارة إليه.

. بقيت علينا جولة نظر في تلك المقالات الحمى التي اختبط فيها القوم اختباط إخوة تفرقت بهم الطرق في السير إلى مقصد واحد، ثم التقوا في غسق الليل فصاح كل فريق بالآخر صيحة المستخبر.فظن كل أن الآخر عدو يريد مقارعته على ما بيده، فاستحر بينهم القتال ولا زالوا يتجالدون حتى تساقط جلهم دون المطلب، ولما أسفر الصبح وتعارفت الوجوة رجع الرشد إلى من يقوم الناجون، ولو تعارفوا من قبل لتعاونوا جميعاً على بلوغ ما أملوا، ولوافتهم الغاية إخوانا بنور الحق مهتدين.

نريد تلك المقالات المضطربة في أنه يجب على الرعاية المصلحة في أفعاله و تحقيق وعيده. فيمن تعدى حدوده من عبيده، و ما يتلو ذلك من وقوع

([1])"الإمكان الخاص" عبارة عن كون كل من إيجاب ذلك وسلبه غير ضرورى أي لا يمتنع فعله عقلا ولا يتحتم.

أعماله تحت العلل والأغراض، فقد بالغ قوم في الإيجاب حتى ظن الناظر في مزاعمهم أنهم عدوه واحداً من المكلفين يفرض عليه أن يجهد للقيام بما عليه من الحقوق وتأدية ما لزمه من الواجبات. تعالى عن ذلك علوا كبيراً. وغلا آخرون في نفي التعليل عن أفعاله حتى خيل لليمين في مقالاتهم أنهم لا يرضونه إلا قلبا يبرم اليوم ما نقضه بالأمس. ويفعل غداً ما أخبر بنقضيه اليوم أو غافلا لا يشعر بما يستتبعه عمله (سبحان ربك رب العزة عما يصفون) وهو أحكم الحاكمين. وأصدق القائلين. جبروت الله وطهارة دينه أعلى وأرفع من هذا كله.

اتفق الجميع على أن أفعاله تعالى لا تخلو من حكمة. وصرح الغلاة والمقصرون جميعا بأنه تعالى منزه عن العبث في أفعاله. والكذب في أقواله، ثم بعد هذا أخذوا يتنابذون بالألفاظ، وتمارون في الأوضاع ولا يدري إلى أي غاية يقصدون، فلنأخذ ما اتفقوا عليه. ولنرد إلى حقيقة واحدة ما اختلفوا فيه.

حكمة كل عمل ما يترتب عليه ما يحفظ نظاماً أو يدفع فساداً خاصا كان أو عاماً لو كشف للعقل من أي وجه لعقله وحكم بأن العمل لم يكن عبثاً ولعباً، ومن يزعم للحكة معنى لا يرجع إلى هذا حاكمتاه إلى أوضاع اللغة و بداهة العقل لا يسمي ما يترتب على العمل حكمة ولا يتمثل عند العقل بمثالها إلا إذا كان ما يتبع العمل مراداً لفاعله بالفعل، وإلا لعد النائم حكما فيما لو صدرت منه حركة في نومه قتلت عقرباً كادت تلسع طفلا، أو دفعت صبياً عن حفرة كاد يسقط فيها، بل لوسم بالحكة كثير من العجماوات إذا استتبعت حركاتها بعض المنافع الخاصه أو العامة، والبداهة تأباه.

من القواعد الصحيحة المسلمة عند جميع العقلاء "أن أفعال العاقل تصان عن العبث" ولا يريدون من العاقل إلا العالم بما يصدر عنه بإرادته، ويريدون من صونها عن العبث أنها لا تصدر إلا لأمر يترتب عليها يكون غاية لها، وإن كان

هذا في العاقل الحادث فا ظنك يوجد كل عقل، ومنتهى الكمال في العلم والحكم ؟ هذه كلها مسلمات لا ينازع فيها أحد.

صنع الله الذي أتقن كل شيء[1] وأحسن خلقه [2] مشحون بضروب الحكم، ففيه ما قامت به السموات والأرض وما بينهما وحفظ به نظام الكون بأسره، وما صانه عن الفساد الذي يفضي به إلى العدم، وفيه ما استقامت به مصلحة كل موجود على حدته، خصوصاً ما هو من الموجودات الحية كالنبات والحيوان، ولولا هذه البدائع من الحكم ما تيسر لنا الاستدلال على علمه.

فهذه الحكم التي نعرفها الآن بوضع كل شيء في موضعه وإيتاء كل محتاج ماله إليه الحاجة، إما أن تكون معلومة له مرادة مع الفعل أم لا [3] لا يمكن القول بالثاني، وإلا لكان قولا بقصور العلم إن لم تكن معلومة، أو بالغفلة إن لم تكن مرادة. وقد سبق تحقيق أن علمه وسع كل شيء واستحالة غيبة أثر من آثاره عن إرادته، فهو يريد الفعل ويريد ما يترتب عليه من الحكمة، ولا معنى لهذا إلا إرادته للحكمة من حيث هي تابعة للفعل، ومن المحال أن تكون الحكمة غير مرادة بالفعل مع العلم بارتباطها به، فيجب الاعتقاد بأن أفعاله يستحيل أن تكون خالية من الحكمة، و بأن الحكمة يستحيل أن تكون غير مرادة، إذ لو صح توهم أن ما يترتب على الفعل غير مراد لم يعد ذلك من الحكمة كما سبق.

فوجوب الحكمة في أفعاله تابع لوجوب الكمال في علمه وإرادته وهو ما لا نزاع فيه بين جميع المتخالفين. وهكذا يقال في وجوب تحقق ما أوعد ووعد

---

(1) مقتبس من سورة النمل ٢٧ : ٨٨

(2) من "الم"، السجدة ٣٢ : ٧

(3) الظاهر التعبير بأولا

به، فإنه تابع لكمال علمه وإرادته وصدقة وهو أصدق القائلين[1] وما جاء في الكتاب أو السنة مما قد يوهم خلاف ذلك يجب إرجاعه إلى بقية الآيات وسائر الآثار حتى ينطبق الجميع إلى ما هدت إليه البديهيات السابق إيرادها وعلى ما يليق بكمال الله و بالغ حكمته وجليل عظمته. والأصل الذي يرجع إليه كل وارد في هذا الباب قوله تعالى (٢١ : ١٦ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين (١٧) لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين (١٨) بل نقف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، ولكم الويل مما تصفون)..

وقوله : لاتخذناه من لدنا، أي لصدر عن ذاتنا المتفردة بالكمال المطلق لا يشوبه نقص وهو محال. و "إن" في قوله "إن كنا فاعلين، نافية وهو نتيجة القياس السابق[2]

بقي أن الناظرين في هذه الحقائق ينقسمون إلى قسمين : فمنهم من يطلب علمها لأنه شهوة العقل وفيه لذته – فهذا القسم يسمى المعاني بأسمائها، ولا يبالى جوز شرع إطلاقها في جانب الله أم لا يجوز، فيسمى الحكمة غاية وغرضا وعلة غائية ورعاية للمصلحة، وليس من رأيه أن يجعل لقلمه عنانا يرده عن إطلاق اسم متي صح عنده معناه. وقد يعبر بالواجب عليه بدل الواجب له غير مبال بما يوهمه اللفظ.

ومنهم من يطلب علمها مع مراعاة أن ذلك دين يتعبد به واعتقاد بشئون لإله عظيم، يعبد بالتحميد والتعظي، ويجب الاحتياط في تنزيهه ولو بعفة اللسان

---

(١) كتب المصنف في طرة نسخته هنا ما نصه : ولا يقال. إن غاية حكمته الوجوب عليه، لأنه هو جاعل الغاية وكون الغاية غاية لأنه المبدع الذي لا يتأثر بشيء ولا يحكم عليه أمر ما أراده

(٢) القياس هو قوله في صحيفة ٥٧ فهذه الحكم التي نعرفها الآن الخ

عن النطق بما يوهم نقصاً في جانبه، فيتبرأ من تلك الألفاظ مفردهاو مركبها، فإن الوجوب عليه يوهم التكليف و الإلزام، وبعبارة أخرى يوم القهر والتأثر بالأغيار، ورعاية المصلحة توهم إعمال النظر وإجالة الفكر. وهما من لوازم النقص في العلم، والغاية والعلة الغائية والغرض توهم حركة في نفس الفاعل من قبل البدء في العمل إلى نهايته، وفيها ما في سوابقها.ولكن الله أكبر هل يصح أن تكون سعة المجال، أو التعفف في المقال سببا في التفرقة بين المؤمنين و تماريهم في الجدال حتى ينتهي بهم التفرق إلى ما صاروا إليه من سوء.

أفعال العباد

كما يشهد سليم العقل والحواس من نفسه أنه موجود ولا يحتاج في ذلك إلى دليل يهديه ولا معلم يرشده. كذلك أنه مدرك لأعماله الاختيارية. يزن نتائجها بعقله ويقدرها بإرادته، ثم يصدرها بقدرة ما فيه ويعد إنكار شيء من ذلك مساويا لإنكار وجوده في مجافاته لبداهة العقل.

كما يشهد بذلك[1] في نفسه يشهده أيضا في بني نوعه كافة متى كانوا مثله في سلامة العقل والحواس، ومع ذلك فقد يريد إرضاء خليل فيغضبه، وقد يطلب كسب رزق فيفوته، وربما سعى إلى منجاة فسقط في مهلكة، فيعود باللائمة على نفسه إن كان لم يحكم النظر في تقدير فعله، ويتخذ من خيبته أول مرة مرشداً له في الأخرى، فيعاود العمل من طريق أقوم، و بوسائل أحكم، ويتقد غيظه على من حال بينه وبين ما يشتهي إن كان سبب الإخفاق في المسعى منازعة منافس له في طلبه، لوجدانه من نفسه أنه الفاعل في حرمانه فينبري لمناضلته، وتارة يتجه إلى أمر أسمى من ذلك إن لم يكن لتقصيره أو المنافسة غيره دخل فيما لقي من مصير عمله، كأن هب ريح فأغرق[2] بضاعته، أو نزلت صاعقة فأحرقت ماشيته، أو علق أمله بمعين فمات أو بذي منصب فعزل. يتجه من ذلك إلى أن في الكون قوة أسمي من أن تحيط بها قدرته، وأن وراء تدبيره سلطانا لاتصل إليه سلطته فإن كان قد هداه البرهان وتقويم الدليل إلى أن حوادث الكون بأسره مستندة إلى واجب وجود واحد يصرفه على متقضى علمه وإرادته، خشع وخضع، ورد الأمر إليه فيما لقي، ولكن مع ذلك

---

(1) الظاهر حذف الباء فإنه من شهود الشيء لا الشهادة به كما في سابق القول ولاحقه.

(2) الريح مؤنثة وقد ذهل المؤلف عن تصحيحه ولم يتركه لأن التأنيث مجازى.

لا ينسى نصيبه فيما بقي، فالمؤمن كما يشهد بالدليل وبالعيان أن قدرة مكون الكائنات أسمى من قوى الممكنات. ويشهد بالبداهة أنه في أعماله الاختيارية – عقلية كانت أو جسمانية قام بتصريف ما وهب الله له من المدارك والقوى فيما خلقت لأجله، وقد عرف القوم شكر الله على نعمه، فقال : هو صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه إلى ما خلق لأجله.

على هذا قامت الشرائع، و به استقامت التكاليف. ومن أنكر شيئاً منه فقد أنكر مكان الإيمان من نفسه، وهو عقله الذي شرفه الله بالخطاب في أوامره ونواهيه.

أما البحث فيما وراء ذلك من التوفيق بين ما قام عليه الدليل من إحاطة علم الله وإرادته، وبين ما تشهد به البداهة من عمل المختار، فيما وقع عليه الاختيار، فهو من طلب سر القدر الذي نهينا عن الخوض فيه، واشتغال بما لا تكاد تصل العقول إليه، وقد خاض فيه الغالون من كل ملة خصوصاً من المسيحيين والمسلمين، ثم لم يزالوا بعد طول الجدال وقوفاً حيث ابتدءوا، وغاية ما فعلوا أن فرقوا وشتتوا، فمنهم القائل بسلطة العبد على جميع أفعاله و استقلاله المطلق وهو غرور ظاهر، ومنهم من قال بالجبر وصرح به، ومنهم من قال به وتبرأ من اسمه، وهو هدم للشريعة، ومحو للتكاليف. وإبطال لحكم العقل البديهي وهو عماد الإيمان.

ودعوى أن الاعتقاد بكسب العبد لأفعاله يؤدي إلى الإشراك بالله – وهو الظلم العظيم – دعوى من لم يلتفت إلى معنى الإشراك على ما جاء به الكتاب والسنة، فالإشراك اعتقاد أن لغير الله أثراً فوق ما وهبه الله من الأسباب الظاهرة، وأن لشيء من الأشياء سلطاناً على ما خرج عن قدرة المخلوقين، وهو اعتقاد من يعظم سوى الله مستعيناً به فيما لا يقدر العبد عليه – كالاستنصار

في الحرب بغير قوة الجيوش، والاستشفاء من الأمراض بغير الأدوية التي هدانا الله إليها، والاستعانة على السعادة الأخروية أو الدنيوية بغير الطرق و السنن التي شرعها الله لنا.

هذا هو الشرك الذي كان عليه الوثنيون ومن ماثلهم فجاءت الشريعة الإسلامية بمحوه، ورد الأمر فيما فوق القدرة البشرية والأسباب الكونية إلى الله وحده، وتقرير أمرين عظيمين هما ركنا السعادة وقوام الأعمال البشرية (الأول) أن العبد يكسب بإرادته وقدرته، ما هو وسيلة لسعادته (والثاني) أن قدرة الله هي مرجع لجميع الكائنات، وأن من آثارها ما يحول بين العبد وبين إنفاذ ما يريده، وأن لاشيء سوى الله يمكن له أن يمد العبد بالمعونة فما لم يبلغه كسبه.

جاءت الشريعة لتقرير ذلك وتحريم أن يستعين العبد بأحد غير خالقه في توفيقه إلى إتمام عمله بعد إحكام البصيرة فيه، وتكليفه أن يرفع همته إلى استمداد العون منه وحده بعد أن يكون قد أفرغ ما عنده من الجهد في تصحيح الفكر وإجادة العمل.

ولا يسمح العقل ولا الدين لأحد أن يذهب إلى غير ذلك.

هذا الذي قررناه قد اهتدى إليه سلف الأمة فقاموا من الأعمال بما عجبت له الأمم، وعول عليه من متأخرى أهل النظر إمام الحرمين الجويني[1] رحمه الله وإن أنكر عليه بعض من لم يفهمه. أكرر القول بأن الإيمان بوحدانية الله لا يقتضي من المكلف إلا اعتقاده أن الله صرفه في قواه، فهو كاسب لإيمانه ولما كافه الله به من بقية الأعمال، و اعتقاد أن قدرة الله فوق قدرته، ولها

(1) إمام الحرمين لقب أبو المعالي عبد الملك بن أبي محمد عبد الله ابن يوسف الجويني الذي نصر مذهب السلف بالصراحة التامة

وحدها السلطان الأعلى في إتمام مراد العيد بإزالة الموانع أو تهيئة الأسباب المتممة مما لا يعلمه ولا يدخل تحت إرادته.

وأما التطلع إلى ماهو أغمض من ذلك فليس من مقتضى الإيمان كما بينا، وإنما هو من شره العقول في طلب رفع الأستار عن الأسرار. ولا أنكر أن قوماً قد وصلوا بقوة العدو المثابرة على مجاهدة المدارك إلى ما اطمأنت به نفوسهم وتقشعت به حيرتهم ولكن قليل ما هم

– على أن ذلك نور يقذفه الله في قلب من شاء، ويخص به أهل الولاية والصفاء. وكثر ما ضل قوم وأضلوا وكان لمقالاتهم أسوأ الأثر فيها عليه حال الأمة اليوم[1].

لو شئت لقربت البعيد فقلت إن من بالغ الحكم في الكون أن تنوع الأنواع على ما هي عليه في العيان ولا يكون النوع ممتازاً عن غيره حتى تلزمه خواصه، وكذا الحال في تميز الأشخاص، فواهب الوجود يهب الأنواع والأشخاص وجودها على ما هي عليه، ثم كل وجود متى حصل كانت له توابعه، ومن تلك الأنواع الإنسان، ومن مميزاته – حتى يكون غير سائر الحيوانات – أن يكون مفكراً مختارا في عمله على مقتضى فكره، فوجوده الموهوب مستتبع لمميزاته هذه، ولو سلب شيء منها لكان إما ملكا أو حيوانا آخر والفرض أنه الإنسان، فهبة الوجود له لاشيء فيها من القهر على العمل. ثم علم الواجب محيط بما يقع من الإنسان بإرادته وبأن عمل

كذا يصدر في وقت كذا وهو خير يثاب عليه، وأن عملا آخر. شر يعاقب عليه عقاب الشر. والأعمال في جميع الأحوال حاصلة عن الكسب

---

(1) هم جهلة أدعياء الولاية بالتصوف التقليدي الذين أفسدوا عقائد العامة بالجبر والخرافات

والاختيار فلا شيء في العلم بسالب للتخيير في الكسب، وكون ما في العلم يقع لا محالة إنما جاء من حيث هو الواقع والواقع لا يتبدل.

ولنا في علومنا الكونية أقرب الأمثال : شخص من أهل العناد يعلم علم اليقين أن عصيانه لأميره باختياره يحل به عقوبته لا محالة لكنه مع ذلك يعمل العمل ويستقبل العقوبة وليس لشيء من علمه وانطباقه على الواقع أدنى أثر في اختياره لا بالمنع ولا بالالزام. فانكشاف الواقع للعالم لا يصح في نظر العقل ملزماً ولا مانعاً. وإنما يريك الوهم تغيير العبارات و تشعب الألفاظ.

ولو شئت لزدت في بيان ذلك ورجوت أن لا يبعد عن عقل ألف النظر الصحيح ولم تفسد فطرته بالمماحكات اللفظية، لكن يمنعني عن الإطالة فيه عدم الحاجة إليه في صحة الإيمان. و تقاصر عقول العامة عن إدراك الأمر في ذاته مهما بالغ المعبر في الإيضاح عنه، والتياث قلوب الجمهور من الخاصة بمرض التقليد، فهمى يتعقدون الأمر ثم يطلبون الدليل عليه ولا يريدونه إلا موافقا لما يعتقدون، فإن جاءهم بما يخالف ما اعتقدوا لبذوه ولجوا في مقاومته، وإن أدى ذلك إلى جحد العقل برمته. فأكثرهم يعتقد فيستدل، وقلما تجد بينهم من يستدل ليعتقد، فإن صاح بهم صائح من أعماق سرائرهم "ويل للخابط، ذلك قلب السنة الله في خلقه، وتحريف لهديه في شرعه، عرتهم هزة من الجزع، ثم عادوا إلى السكون، محتجين بأن هذا هو المألوف، وما أقمنا إلا على معروف. ولا حوله ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

حسن الأفعال وقبحها

الأفعال الإنسانية الاختيارية لا تخرج عن أن تكون من الأكوان الواقعة تحت مداركنا، وما تنفعل به نفوسنا عند الإحساس بها أو استحضار صورها، يشابه كل المشابهة ما تنفعل به عند وقوع بعض الكائنات تحت حواسنا، أو حضورها في مخيلاتنا – وذلك بديهي لا يحتاج إلى دليل.

نجد في أنفسنا بالضرورة تمييزاً بين الجميل من الأشياء والقبيح منها، فإن اختلفت مشارب الرجال في فهم جمال النساء، أو مشارب النساء في معنى جمال الرجال، فلم يختلف أحد في جمال ألوان الأزهار و تنضيد أوراق النباتات والأشجار، خصوصاً إذا كانت أوضاع الزهر على أشكال تمثل الائتلاف والتناسب بين تلك الألوان بعضها مع بعض – ولا في قبح الصورة الممثل بها بتهشيم بعض أجزائها وانقطاع البعض الآخر على غير نظام، وانفعال أنفسنا من الجميل بهجة أو إعجاب ومن القبيح اشمئزاز أو جزع، وكما يقع هذا التميز في المبصرات. يقع في غيرها من المسموعات والملبوسات والمذوقات والمشمومات، كما هو معروف لكل حساس من بني آدم بإحدى تلك الحواس.

ليس هذا موضع تحديد ما هو الجمال وما هو القبح في الأشياء. ولكن لا يخالفنا أحد في أن من خواص الإنسان بل وبعض الحيوان التمييز بينهما. وعلى هذا قامت الصناعات على اختلاف أنواعها و به ارتقى العمران في أطواره إلى الحد الذي نراه عليه الآن، وإن اختلفت الأذواق – في الأشياء جمال و قبح.

هذا في المحسوسات واضح كما سبق، ولعله لا ينزل عن تلك الدرجة في الوضوح ما يلم به العقل من الموجودات المعقولة. وإن اختلف اعتبار الجمال

فيها. فالكمال في المعقولات كالوجود الواجب والأرواح اللطيفة وصفات النفوس البشرية له جمال تشعر به أنفس عارفيه و تنبهر له بصائر لاحظيه. وللنقص قبح لا تنكره : المدارك العالية وإن اختلف أثر الشعور ببعض أطواره في الوجدان. عن أثر الإحساس بالقبيح في المحسوسات، وهل في الناس من ينكر قبح النقص في العقل. والسقوط في الهمة، وضعف العزيمة ؟ ويكفي أن أرباب هذه النقائص يجاهدون في إخفائها، ويفخرون أحيانا بأنهم متصفون بأضدادها.

وقد يحمل القبيح بجمال أثره، ويقبح الجميل بقبح ما يقترن به. فالمر قبيح مستبشع، والملك الدميم المشوه الخلقة ينبو عنه النظر لكن أثر المر في معالجة المرض، وعدل الدميم في رعيته أو إحسانه إليك في خاصة نفسك، يغير من حالتك النفسية عنده حضور صورته، فإن جمال الأثر يلقي على صاحبه أشعة من بهائه فلا يشعر الوجدان منه إلا بالجميل ومثل ذلك يقال في قبح الحلو إذا أضر، واشمئزاز النفس من الجميل إذا ظلم وأصر.

هل يمكن لعاقل أن لا يقول في الأفعال الاختيارية، كما قال في الموجودات الكونية، مع أنها نوع منها، وتقع تحت حواسنا و مداركنا العقلية إما بنفسها وإما بأثرها، وتنفعل نفوسنا بما يلم بها منها كما تنفعل بما يرد عليها من صور الكائنات؟ كلا، بل هي قسم من الموجودات حكمها في ذلك حكم سائرها بالبداهة.

فمن الأفعال الاختيارية ما هو معجب في نفسه تجد النفس معه ما تجد من جمال الخلق كالحركات العسكرية المنتظمة و تقلب المهرة من اللاعبين في الألاعيب المعروفة اليوم – "بالجمناستيك" وكإيقاع النغمات على القوانين الموسيقية من العارف بها. ومنها ما هو قبيح في نفسه يحس منه ما يحس من رؤية

الخلق المشوه كمتخبط ضعفاء النفوس عند الجزع، وكولولة النائحات وتقع المذعورين [1].

ومنها ما هو قبيح لما يعقبة من الألم، وما هو حسن لما يجلب من اللذة أو دفع الألم. فالأول : كالضرب والجرح، وكل ما يؤلم من أفعال الإنسان. والثاني : كالأكل على جوع والشرب على عطش وكل ما يحصل لذة أو بدفع ألماً مما لا يحصى عده. وفي هذا القسم يكون الحسن بمعنى ما يلذ. والقبيح بمعنى المؤلم.

وقلما يختلف تميز الإنسان للحسن والقبيح من الأفعال بالمعنيين السابقين عن تمييز الحيوانات المرتقية في سلسلة الوجود اللهم إلا في قوة الوجدان وتحديد مرتبة الجمال والقبح.

ومن الأفعال الاختيارية ما يحسن باعتبار ما يجلب من النفع، ومايقبح بما يجر إليه من الضرر، ويختص الإنسان بالتمييز بين الحسن والقبيح بهذا المعنى، إذا أخذ من أكمل وجهاته، وقلما يشاركه فيه حيوان آخر، اللهم إلا من أحط جهاته، وهو خاصة العقل، وسر الحكمة الإلهية في هبة الفكر.

فن اللذيذ ما يقبح لشؤم عاقبته كالإفراط في تناول الطعام والشراب والانقطاع إلى سماع الأغاني والجري في أعقاب الشهوات، فإن ذلك مفسدة للصحة، مضيعة للعقل، متلفة للمال، مدعاة للعجز والذل.

وإنما قبح اللذيد في هذا الموضوع لقصر مدته وطول مدة ما يجر إليه عادة من الآلام التي ربما لا تنتهي إلا بالموت على أسوأ حالاته، ولضعف النسبة بين متاع اللذة ومقاساة شدائد الألم.

ومن المؤلم ما يحسن كتجشم مشاق التعب في الأعمال لكسب الرزق

---

(1) نقعهم : صباحهم. يقال : نقع الصوت إذا ارتفع و نقع الصارخ (كفتح) نقعا ونقوعاً : رفع صوته.

وتأمين النفس على حاجاتها في أوقات الضعف، ومجاهدة الشهوات ومقاساة الحرمان من بعض اللذات حينا من الزمن، ليتوفر للقوى البدنية والعقلية حظها من التمتع بما قدر لها من اللذائذ على وجه ثابت لا يخالطه اضطراب، أو على نمط يخفف من رزايا الحياة إن عدت الحياة مثاراً لها.

ومن المؤلم الذي عده العقل البشرى حسنا : مقارعة الإنسان عدوه، سواء كان من نوعه أو من غيره للمدافعة عن نفسه، أو عن أنصاره، ومنهم بنو أبيه، أو قبيلته، أو شعبه، أو أمته – حسب ارتقائه في الإحساس – ومخاطرته ولو بحياته في سبيل ذلك، كأنه يرى في بذل هذه الحياة أمنا على حياة أخرى تشعر بها نفسه، وإن لم يحددها عقله. ومنه معاناة التعب في كشف ما عمى عن علمه من حقائق الكون. كأنه لا يرى المشقة في ذلك شيئا بالقياس إلى ما يحصل من لذة الاطمئنان على الحق بقدر ماله من الاستطاعة.

وعد من اللذيذ المستقبح مد اليد إلى ما كسبه الغير بسعيه، واستشفاء أم الحقد بإتلاف نفس المحقود عليه، أو ماله،لما في ذلك من جلب المخافة العامة حتى على ذات المتعدي، و يمكنك من نفسك استحضار ما يتبع الوفاء بالعهود والعقود والغدر فيها.

كل هذا عرفه العقل البشري وفرق فيه بين الضار والنافع، وسمي الأول فعل الشر، والثاني عمل الخير، وهذا التفريق هو منبت التمييز بين الفضيلة والرذيلة، وقد حددهما النظر الفكري على تفاوت في الإجمال والتفصيل للتفاوت في درجات عقول الناظرين، وناط بهما سعادة الإنسان وشقاءه في هذه الحياة، كما ربط بهما نظام العمران البشري وفساده، وعزة الأمم وذلتها، وضعفها وقوتها، وإن كان المحددون لذلك والآخذون فيه بحظ من الصواب هم العدد القليل من عقلاء البشر.

كل هذا من الأوليات العقلية لم يختلف فيه ملى ولا فيلسوف، فللأعمال الاختيارية حسن و قبح في نفسها أو باعتبار أثرها في الخاصة أو في العامة، والحس أو العقل قادر على تمييز ما حسن منها وما قبح بالمعاني السابقة بدون توقف على مسمع، والشاهد على ذلك ما نراه في بعض أصناف الحيوان، وما نشهده في أفاعيل الصبيان قبل تعقل ما معنى الشرع وما وصل إلينا من تاريخ الإنسان. وما عرف عنه في جاهليته.

ومما يحسن ذكره هنا ما شاهده بعض الناظرين في أحوال النمل-

قال : كانت جماعة من النمل تشتغل في بيت لها [1]، فجاءت نملة كأنها القائمة بمراقبة العمل فرأت المشتغلات قد وضعت السقف على أقل من الارتفاع المناسب فأمرت بهدمه فهدم، ورفع البنيان إلى الحد الموافق، ووضع السقف على أرفع مما كان، وذلك من أنقاض السقف القديم. وهذا هو التمييز بين الضار والنافع – فمن زعم أن لا حسن ولا قبح في الأعمال على الإطلاق فقد سلب نفسه العقل، بل عدها أشد حمقا من النمل[2]

سبق لنا أن واجب الوجود وصفاته الكمالية تعرف بالعقل، فإذا وصل مستدل ببرهانه إلى إثبات الواجب وصفاته غير السمعية ولم تبلغه بذلك رسالة كما حصل لبعض أقوام من البشر، ثم انتقل من النظر في ذلك وفي أطوار نفسه إلى أن مبدأ العقل في الإنسان. يبقى بعد موته كما وقع لقوم آخرين. ثم انتقل من هذا مخطئا أو مصيبا إلى أن بقاء النفس البشرية بعد الموت يستدعي سعادة لها فيه أو شقاء ثم قال إن سعادتها إنما تكون بمعرفة الله وبالفضائل. وأنها إنما تسقط في الشقاء بالجهل بالله وبارتكاب الرذائل، وبني على ذلك أن من

([1])كان ينبغي أن يقول قرية لها.

([2]) ليته قال أقل علما من النمل- وقد روي عن سليمان عليه السلام : كن حكيما كالنملة.

الأعمال ما هو نافع للنفس بعد الموت بتحصيل السعادة، و منها ما هو ضار لها بعده بايقاعها في الشقاء. فأي مانع عقلي أو شرعي يحظر عليه أن يقول بعد ذلك بحكم عقله. إن معرفة الله واجبة، وإن جميع الفضائل وما يتبعها من الأعمال مفروضة وإن الرذائل وما يكون عنها محظورة، وأن يضع لذلك ما يشاء من القوانين ليدعو بقية البشر إلى الاعتقاد بمثل ما يعتقد، وإلى أن يأخذوا من الأعمال بمثل ما أخذ به من حيث لم يوجد شرع يعارضه.

أما أن يكون ذلك حالا لعامة الناس يعلمون بعقولهم أن معرفة الله واجبة، وأن الفضائل مناط السعادة في الحياة الأخرى، والرذائل مدار الشقاء فيها. فما لا يستطيع عاقل أن يقول به. والمشهود من حال الأمم كافة يضلل القائل به في رأيه.

لو كانت حاجات الإنسان ومخاوفه محدودة كما هي حاجات فيل أو أسد مثلا، وكان ما وهب له من الفكر واقفا عند حد ما إليه الحاجة، لاهتدى إلى المنافع واتقاء المضار على وجه لا يختلف فيه أفراده، ولسعدت حياته، وتخلص كل من شر الآخر، ونجا بقية الحيوانات من غائلة الجميع.

لكن قضي عليه حكم نوعه بأن لا يكون لحاجته حد، ولا تختص معبشته نجو من الجواء[1] ولا بوضع من الأوضاع، وأن يوهب من القوى المدركة ما يكفيه استعماله في سدعوزه و توفير لذاته في أي إقليم وعلى أي حال، و أن يختلف ظهور هذه المدارك في أطوارها وآثارها باختلاف أصنافه وشعوبه و أشخاصه اختلافا لا تنتهي درجاته – ولولا هذا لما خالف بقية الحيوانات إلا باستقامة القامة، وعرض الأظفار.

---

(1) الجو جمعه جواه كسهم وسهام، وكان في الأصل الأجواء

وهب الله الإنسان أو سلط عليه ثلاث قوي لم يساوه فيها حيوان: الذاكرة و الغيلة و المفكرة فالذاكرة: تثير من صور الماضي ما ستره الاشتغال بالحاضر. فنستحضر من صور المرغوبات والمكروهات ما تنبه إليه الأشباه أو الاصداد الحاضرة، فقد يذكر الشيء بشبهه وقد يذكر بضده كما هو بديهى – والخيال يجسم من المذكور وما يحيط به من الأحوال حتى يصير كأنه مشاهد، ثم ينشيء له مثال لذة أو ألم في المستقبل يحاكي ما ذهب به الماضي. ويهمز النفس في طلبه أو الهرب منه. فنلجأ إلى الفكر في تدبير الوسيلة إليه.

على هذه القوي الثلاث مستوى سعادة الإنسان ومنها ينبوع بلائه

فمن الناس معتدل الذكر هادئ الخيال صحيح الفكر، ينظر مثلا في حال مسرف أنفق ماله في غير نافع وضاقت يده عما يقيم معيشته فيذكر ألماً لحاجة مضت، ثم يتخيل المال ومنافعه وما تتمتع به النفس من اللذة به سواء في سد حاجاته أو في دفع الألم الذي يحدثه مشهد الفاقة في غيره بإعطاء المضطر ما يذهب بضرورته، ثم يتخيل ذلك المال آتيآ من وجوهه التي لا يتعلق بها حق من حقوق غيره،. وعند ذلك يوجه فكره لطلب الوسيلة إليه من تلك الوجوه بالعمل القويم في استخدام ما وهبه الله من القوى في نفسه، وما سخره له من قرى الكون المحيط به.

ومن الناس منحرف عن سنن الاعتدال، يرى مالا مثلا في يد غيره فيتذكر لذة ماضية أصابها بمثل هذا المال، ويعظم له الخيال لذة مثلها في المستقبل، ولا يزال يعظم في تلك اللذة والتمتع بها حتى يقع ظل الخيال على طريق الفكر، فيستر عنه ما طاب من وجوه الكسب وإنما يعمد إلى استعمال قوته أو حيلته في سلب المال من يد مالكه لينفقه فيما تخيل من المنفعة، فيكون قد عطل بذلك قواه الموهوبة له واخل بالأمن الذي أفاضه الله بين عباده و سن سنة

الاعتداء فلا يسهل عليه ولا على غيره الوصول إلى الراحة من أعمال المقترفين لمثل عمله

وخفيف من النظر في أعمال البشر يجليها جميعا على نحو ما بينا في المثالين – فلقوة الذاكرة وضعها، وحدة الخيال واعتداله واعوجاج الفكر و استقامته، أعظم أثر في التميز بين النافع والضار في أشخاص الأعمال، وللأمزجة والجواء وما يحتف بالشخص من أهل وعشيرة و معاشرين مدخل عظيم في التخيل والفكر بل وفي الذكر.

فالناس متفقون على أن من الأعمال ما هو نافع ومنها ما هو ضار وبعبارة أخرى منها ما هو حسن ومنها ما هو قبيح، ومن عقلائهم وأهل النظر الصحيح والمزاج المعتدل منهم من يمكنه إصابة وجه الحق في معرفة ذلك، ومتفقون كذلك على أن الحسن ما كان أدوم فائدة وإن كان مؤلما في الحال، وأن القبيح ماجر إلى فساد في النظام الخاص بالشخص أو الشامل له ولمن يتصل به، وإن عظمت لذته الحاضرة، ولكنهم يختلفون في النظر إلى كل عمل بعينه اختلافهم في أمزجتهم وسحتهم ومناشئهم وجميع ما يكتنف بهم[1] فلذلك ضربوا إلى الشر في كل وجه، وكل يظن أنه إنما يطلب نافعا ويتق ضاراً. فالعقل البشري وحده فيس في استطاعته أن يبلغ بصاحبه ما فيه سعادته في هذه الحياة. اللهم إلا في قليل ممن لم يعرفهم الزمن، فان كان لهم من الشأن العظيم ما به عرفهم أشار إليهم الدهر بأصابع الأجيال، وقد سبقت الإشارة إليهم فيما مر.

وليست عقول الناس، سواء في معرفة الله تعالى ولا في معرفة حياة بعد هذه الحياة، فهم وإن اتفقوا في الخضوع لقوة أسمي من قواهم و شعر معظهم

(1) يقال. اكتنفه القوم بمعنى أحاطوا به فهو يتعدى بنفسه وعداه بالباء بحسب مغناه.

بيوم بعد هذا اليوم، ولكن أفسدت الوثنية عقولهم وانحرفت بها عن مسلك السعادة. فليس في سعة العقل الإنساني في الأفراد كافة أن يعرف، من الله ما يجب أن يعرف ولا أن يفهم من الحياة الآخرة ما ينبغي أن يفهم، ولا أن يقرر لكل نوع من الأعمال جزاءه في تلك الدار الآخرة. وإنما قد تيسر ذلك لقليل ممن اختصهم الله بكمال العقل ونور البصيرة وإن لم ينل [1] شرف الاقتداء بهدي نبوى. ولو بلغه لكان أسرع الناس إلى إتباعه. وهؤلاء ربما يصلون بأفكارهم إلى العرفان من وجه غير ما يليق في الحقيقة أن ينظر منه إلى الجلال الإلهي.

ثم من أحوال الحياة الأخرى، ما لا يمكن لعقل بشرى أن يصل إليه وحده. وهو تفصيل اللذائذ والآلام وطرق المحاسبة على الأعمال ولو بوجه ما.

ومن الأعمال مالا يمكن أن يعرف وجه الفائدة فيه [2] لا في هذه الحياة ولا فيما بعدها، كصور بعض العبادات كما يرى في أعداد الركعات، وبعض الأعمال في الحج في الديانة الإسلامية، وكبعض الاحتفالات في الديانة الموسوية [3] وضروب التوسل والزهادة في الديانة العيسوية – كل ذلك ما لا يمكن للعقل

---

(1) الفاعل ضمير يعود إلى كلمة قليل بحسب لفظها.

(2) أي لا يعرف وجه الفائدة فيه نفسه غير كونه تعبداً مع ظهور فائدته التعبدية وهو فعله المحض امتثال أمر الله تعالى دون ملاحظة منفعة خاصة به، ويعبرون عن هذا القسم من العبادة بغير معقول المعنى ويقابله معقول المعنى جملة وتفصيلا كالوضوء والغسل وطهارة البدن والثوب. فان فائدة ذلك من حفظ الصحة وراحة النفس وهناء المعيشة ظاهرة. كذلك فائدة الصلاة في جملتها والصيام والزكاة و غير ذلك من حكم العبادات وقد أجملها المؤلف في الكلام على الدين الإسلامي ومن المستغرب قوله هنا : لا في هذه الحياة ولا فيما بعدها.

(3) يظهر لى أن حكمة بعض الاحتفالات في الديانة الموسوية هي محاكاة ما ألفه اليهود في مصر ثم في فلسطين من رؤية احتفالات الأمم الوثنية مع توجيه الأنفس فيه إلى عبادة الله تعالى والتوجه إليه وحده حتى لا يعودوا إلى مثال ما فعلوا في التيه من اتخاذ عمل كعجل المصريين (ابيس) وإلى مثل عبادتهم.

البشري أن يستقل بمعرفة وجه الفائدة فيه. ويعلم الله أن فيه سعادته[1]

لهذا كله كان العقل الإنساني محتاجا – في قيادة القوى الإدراكية والبدنية إلى ما هو خير له في الحياتين – إلى معين يستعين به في تحديد أحكام الأعمال وتعيين الوجه في الاعتقاد بصفات الألوهية ومعرفة ما ينبغي أن يعرف من أحوال الآخرة – وبالجملة في وسائل السعادة في الدنيا والآخرة ولا يكون لهذا المعين سلطان على نفسه، حتى يكون من بني جنسه، ليفهم منه أو عنه ما يقول، وحتى يكون ممتازا على سائر الأفراد بأمر فائق على ما عرف في العادة وما عرف في سنة الخليقة، ويكون بذلك مبرهناً [2] على أنه يتكلم عن الله الذي يعلم مصالح العباد على ما هى عليه، ويعلم صفاته الكمالية وما ينبغي أن يعرف منها، والحياة الآخرة وما أعد فيها، فيكون الفهم عنه والثقة بأنه يتكلم عن العليم الخبير معيناً للعقل على ضبط ما تشتت عليه،أو درك ما ضعف عن إدراكه.

وأما المبالغة في الزهد المتواتر عن المسيح عليه السلام فحكمته المبالغة في مقاومة غلو اليهود والرومان في عصره في عبادة المال والشهوات البدنية تمهيدا لدين الإسلام الوسط المعتدل الدائم الذي يجيء به البارقليط روح الحق محمد (ص) الذي بشرهم به وقال إنه هو الذي يعلمهم كل شيء.

(1) (١) ضرب الغزالي مثلا لمعرفة المكلف فائدة العبادة في جملتها دون بعض تفصيل جزئياتها ووجوب تفويض ذلك إلى علم الله تعالى، فشبهها بالدواء يعم المريض بالتجربة أو الثقة بالأطباء أنه يشفي من المرض وهو يجهل فائدة تركبه من أجزاء بعضها قليل كقمحة أو قمحتين وبعضها كثير كأوقية أو عشر أوراق مثلا، ويفوض ذلك إلى علم الطبيب.

(2) أكثر نقلة اللغة على أن النون في البرهان زائدة وأن قولهم برهن مولد وإنما يقال ابره أى جاء بالبرهان وحكى بعضهم الوجهين كالأزهرى.

وذلك المعين هو "النبي"

النبوة تحدد ما ينبغي أن يلحظ في جانب واجب الوجود من الصفات وما يحتاج إليه البشر كافة من ذلك، وتشير إلى خاصتهم بما يمكن لهم أن يفضلو به غيرهم في مقامات عرفانهم لكنها لا تحتم إلا ما فيه الكفاية للعامة. فجاءت النبوات مطالبة بالاعتقاد بوجود الله و بوحدانيته وبالصفات التي أثبتناها على الوجه الذي بيناه. و أرشدت إلى طرق الاستدلال على ذلك. فوجوب المعرفة على هذا الوجه المخصوص، وحسن المعرفة وحظر الجهالة أو الجحود بشيء مما أوجبه الشرع في ذلك وقبحه، مما لا يعرف إلا من طريق الشرع معرفة تطمئن بها النفس، ولو استقل عقل بشرى بذلك لم يكن على الطريق المطلوب من الجزم واليقين والاقتناع الذي هو عماد الطمأنينة، فان زيد على ذلك أن العرفان على ما بينه الشرع يستحق المثوبة المعينة فيه، وضده يستحق العقوبة التي نص عليها – كانت طريق معرفة الوجوب شرعية محضة، غير أن ذلك لا ينافي أن معرفة الله على هذه الصفة حسنه في نفسها وإنما جاء الشرع مبينا للواقع، فهو ليس محدث الحسن. ونصوصه تؤيد ذلك.

وأذكر مثالا من كثير : قال تعالى على لسان يوسف (١٢ : ٣٩ أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟) يشير بذلك إشارة واضحة إلى أن تفرق الآلهة يفرق بين البشر في وجهة قلوبهم. إلى أعظم سلطان يتخذونه فوق قوتهم، وهو يذهب بكل فريق إلى التعصب لما وجه قلبه إليه، وفي ذلك فساد نظامهم كما لا يخفي، وأما اعتقاد جميعهم بإله واحد فهو توحيد لمنازع نفوسهم إلى سلطان واحد يخضع الجميع لحكمه، وفي ذلك نظام إخوتهم، وهي قاعدة

سعادتهم، وإليها مآلهم فيما أعتقد وإن طال الزمان [1] فكما جاء الشرع مطالباً بالاعتقاد جاء هادياً لوجه الحسن فيه.

النبوة تحدد أنواع الأعمال التي تناط بها سعادة الإنسان في الدارين، وتطالبه عن الله بالوقوف عند الحدود التي حددتها، وكثيراً ما تبين له مع ذلك وجوه الحسن أو القبح فيما أمر به أو نهى

(١) كان المؤلف ﷺ يعتقد أن ارتقاء الأمم من طريق علوم الكون والتنفس والاجتماع سينتهى بهم إلى التوحيد وسائر ما قرره القرآن من أصول الدين (٤١ : ٥٣ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ٥٤ ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شيء محيط). عنه، فوجوب عمل من المأمور به أو الندب إليه، وحظر عمل أو كراهته من المنهي عنه على الوجه الذي حددته الشريعة وعلى أنه مثاب عليه بأجر كذا و مجازى عليه بعقوبة كذا – مما لا يستقل العقل بمعرفته، بل طريقة معرفته شرعية، وهو لا ينافي أيضاً أن يكون المأمور به حسناً في ذاته، بمعنى أنه مما يؤدى إلى منفعة دنيوية أو أخروية باعتبار أثره في أحوال المعيشة أو في صحة البدن أو في حفظ النفس أو المال أو العرض، أو في زيادة تعلق القلب بالله جل شأنه، كما هو مفصل في الأحكام الشرعية. وقد يكون من الأعمال ما لا يمكن درك حسنه، ومن المنهيات ما لا يعرف وجه قبحه، وهذا النوع لا حسن له إلا الأمر، ولا قبح إلا النهي. والله أعلم.

(١)

الرسالة العامة

نريد بالرسالة العامة بعثة الرسل لتبليغ شيء من العقائد والأحكام عن الله خالق الإنسان ومو فيه مالا غنى له عنه، كما وفي غيره من الكائنات سداد حاجاتها ووقاء وجودها على القدر الذي حدد لها في رتبة نوعها من الوجود.

والكلام في هذا البحث من وجهين (الأول) وهو أيسرهما على المتكلم – وجه أن الاعتقاد بعثة الرسل ركن من أركان الإيمان [1]. فيجب على كل مؤمن ومؤمنة أن يعتقد أن الله أرسل رسلا من البشر مبشرين بثوابه، ومنذرين بعقابه. قاموا بتبليغ أممهم ما أمرهم بتبليغه من تنزيه لذاته، و تبيين سلطانه القاهر على عباده، وتفصيل لأحكامه، في فضائل أعمال وصفات يطالبهم بها. وفي نقائص فعال و خلائق ينهاهم عنها – وأن يعتقد وجوب تصديقهم في أهم يبلغون ذلك عن الله، ووجوب الاقتداء بهم في سيرهم، والائتمار بما أمروا به والكف عما نهوا عنه، وأن يعتقد أن منهم من أنزل الله عليه كتباً تشتمل على ما أراد أن يبلغوه من الخبر عنه، ومن الحدود والأحكام التي علم الخير لعباده في الوقوف عندها، وأن هذه الكتب التي أنزلت عليهم حق – وأن يؤمن بأنهم مؤيدون من العناية الإلهية بما لا يعهد للعقول ولا للاستطاعة البشرية، وأن هذا الأمر الفائق لمعروف البشر هو المعجزة الدالة على صدق النبي في دعواه، فمتى ادعى الرسول النبوة واستدل عليها بالمعجزة وجب التصديق برسالته.

ومن لوازم ذلك بالضرورة وجوب الاعتقاد بعلو فطرتهم وصحة عقولهم، وصدقهم في أقوالهم، و أمانتهم في تبليغ ما عهد إليه أن يبلغوه. وعصمتهم من

---

(1) يقابل هذا الوجه حاجة البشر إلى الرسالة وقد عقد له فصلا خاصا سيأتي في (صفحة ٨٩)

كل ما يشوه السيرة البشرية، وسلاما أبدانهم مما تنبو عنه الأبصار، وتنفر منه الأذواق السليمة، وأنهم منزهون عما يضاد شيئا من هذه الصفات المتقدمة، وأن أرواحهم ممدودة من الجلال الإلهى بما لا يمكن معه لنفس إنسانية أن تسطو عليها سطوة روحانية – أما فيما عدا ذلك فهم بشر يعتريهم ما يعترى سائر أفراده : يأكلون ويشربون وينامون ويسهون وينسون فيما لا علاقة له بتبليغ الأحكام – ويمرضون وتمتد إليهم أيدي الظلمة، وينالهم الاضطهاد، وقد يقتل الأنباء.

المعجزة ليست من نوع المستحيل عقلا فإن مخالفة السير الطبيعي المعروف في الإيجاد مما لم يقم دليل على استحالته، بل ذلك مما يقع كما يشاهد في حال المريض يمتنع عن الأكل مدة لو لم يأكل فيها وهو صحيح لمات مع وجود العلة التي تزيد الضعف وتساعد الجوع على الإتلاف.

فإن قيل : إن ذلك لا بد أن يكون تابعاً لناموس آخر طبيعى،

قلنا : إن واضع الناموس هو موجد الكائنات، فليس من المحال عليه أن يضع نواميس خاصة بخوارق العادات، غاية ما في الأمر أننا لا نعرفها ولكننا نرى أثرها على يد من اختصه الله بفضل من عنده، على أننا بعد الاعتقاد بأن صانع الكون قادر مختار يسهل علينا العلم بأنه لا يمتنع عليه أن يحدث الحادث على أي هيئة وتابعاً لأي سبب إذا سبق في علمه أنه يحدثه كذلك.

المعجزة لا بد أن تكون مقرونة بالتحدي عند دعوى النبوة، وظهورها من البراهين المثبتة لنبوة من ظهرت على يده، لأن النبي يستند إليها في دعواه أنه مبلغ عن الله، فإصدار الله لها عند ذلك يعد تأييداً منه له في تلك الدعوى. ومن المحال على الله أن يؤيد الكاذب، فإن تأييد الكاذب تصديق له، وتصديق

الكاذب كذب وهو محال على الله[1] فمتى ظهرت المعجزة وهي ما لا يقدر عليه البشر، وقارن ظهورها دعوى النبوة علم بالضرورة أن الله ما أظهرها إلا تصديقاً لمن ظهرت على يده، وإن كان هذا العلم قد يقارنه الإنكار مكابرة.

. وأما السحر وأمثاله فإن سلم أن مظاهره فائقة عن [2] آثار الأجسام والجسمانيات فهي لا تعلو عن متناول القوى الممكنة فلا يقارب المعجزة في شيء.

أما وجوب تلك الصفات المتقدمة للأنبياء فلأنهم لو انحطت فطرهم عن فطر أهل زمانهم، أو تضاءلت أرواحهم لسلطان نفوس أخر، أو مس عقولهم شيء من الضعف – لما كانوا أهلا لهذا الاختصاص الإلهي الذي يفوق كل اختصاص : اختصاصهم بوحيه، والكشف لهم عن أسرار علمه. ولو لم تسلم أبدانهم عن المنفرات لكان انزعاج النفس لمرآهم، حجة للمنكر في إنكار دعواهم. ولو كذبوا أو خانوا أو قبحت سيرتهم لضعفت الثقة بهم، ولكانوا مضلين لا مرشدين فتذهب الحكمة من بعثهم، والأمر كذلك لو أدركهم السهو أو النسيان فيما عهد إليهم تبليغه من العقائد والأحكام.

وأما وقوع الخطأ منهم فيما ليس من الحديث عن الله ولا له مدخل في التشريع فجوزه بعضهم والجمهور على خلافه، وما ورد من مثل أن النبي صلى

---

(1) يشير المصنف إلى أن دلالة المعجزة وضعية. لأنها بمعنى التصديق بالقول وهو المشهور. وقيل عقلية وقيل : عادية، ومن : هذه المباحث ما قرره المتكلمون بأدلتهم النظرية ولم يرد في النصوص السمعية.

(2) فعل فاق يتعدى بنفسه يقال : فاق اقرانه ولعله ضمنه معنى الانفصال على القول بقياسية التضمين. ومثله قوله بعده ولا تعلو عن متناول القوي". يقال. علاه وعلا بعضهم على بعض وقد ضمنه معنى البعد. والسحر ليس من الخوارق كما توهم بعض المتكلمين فإنه صناعة تتلقي بالتعليم كما ثبت بنص القرآن و تاريخ قدماء المصريين وغيرهم وقد بينا حقيقته في تفسير قصة هاروت وماروت (صفحة ٣٩٧ من الجزء الأول من تفسير المنار)

الله عليه وسلم نهى عن تأبير النخل [1] ثم أباحه لظهور أثره في الإثمار فإنما فعله عليه الصلاة و السلام ليعلم الناس أن ما يتخذونه من وسائل الكسب و طرق الصناعات فهو موكول لمعارفهم وتجاربهم، ولا حظر عليهم فيه ما دامت الشرائع مرعية، والفضائل محمية، وما حكاه الله من قصة آدم وعصيانه بالأمل من الشجرة فما خفي فيه سر النهي عن الأكل والمؤاخذة عليه، وغاية ما علمناه من حكمته أنه كان سبباً لعمارة الأرض ببني آدم كأن النهي والأكل رمزان إلى طورين من أطوار آدم عليه السلام أو مظهران من مظاهر النوع الإنساني في الوجود. والله أعلم [2] ومن العسر إقامة الدليل العقلي أو إصابة دليل شرعي يقطع بما ذهب إليه الجمهور.

---

(1) "تأبير النخل" تلقيحه والحديث في صحيح مسلم والروايات صريحة في تأييد قول المجوزين دون الجمهور، منها رواية موسى بن طلحة من آبله مرفوعا. إن كان ذلك ينفعهم فليصنعوه فإني إنما ظننت ظناً فلا تؤاخذوني بالظن، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به فإني لن أكذب على الله عز وجل، ورواية رافع بن خديج. إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشيء. من أمر دينكم فخذوا، به وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر " ورواية عائشة "أنتم أعلم بأمر دنياكم"..

(2) للمؤلف رحمه الله كلام مفصل في هذه المسألة قرره في تفسير قصة آدم من سورة البقرة يطلب من الجزء الأول من تفسير المنار فهو بما لم يحم حوله أحد فيما علمنا

وقد قيل أيضا : إن آدم عليه السلام لم يكن في الجنة نبيا رسولا ولم يكن معه أمة يخشى أن تسوء قدوتهم به. وقد صح في حديث الشفاعة أن نوحا أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض، وهو ظاهر عدة آيات في القرآن لا محل هنا لذكرها. وإنما الغرض هنا أن قصة آدم عليه السلام لا ترد على الدليل النظري الذي استدلوا به على عصمة الأنبياء. والجمهور يقولون بأن عصمتهم إنما تثبت بعد النبوة لا قبلها، والجمع عليه منها العصمة في التبليغ أو عما ينافي الرسالة وعن الكفر قال السعد في شرح المقاصد : والمذهب عندنا منع الكبائر بعد البعثة مطلقاً، والصغائر عمداً لا سهواً، لكن لا يصرون ولا يقرون بل ينبهون فيتنبهون. ثم أجاب عن معصية آدم بأنها كانت قبل البعثة (قال) وكيف ولم تكن في الجنة أمة وكان عن نسيان لقوله تعالى (فنسى) الخ.

حاجة البشر إلى الرسالة

سبق لك في الفصل السابق ما يهم الكلام عليه من الوجه الأول وهو وجه ما يجب على المؤمن اعتقاده في الرسل. والكلام في هذا الفصل موجه إن شاء الله إلى بيان الحاجة إليهم. وهو معترك الأفهام، ومزلة الأقدام، ومزدحم الكثير من الأفكار والأوهام، و لسنا بصدد الإتيان بما قال الأولون، ولا عرض ما ذهب إليه الآخرون ولكنا نلزم ما التزمنا في هذه الوريقات من بيان المعتقد، والذهاب إليه من أقرب الطرق. من غير نظر إلى ما مال إليه المخالف، أو استقام عليه الموافق، اللهم إلا إشارة من طرف خفي، أو إلماعاً لا يستغني عنه القول الجلى.

وللكلام في بيان الحاجة إلى الرسل مسلكان (الأول) – وقد سبق الإشارة إليه – يبتدىء من الاعتقاد ببقاء النفس الإنسانية بعد الموت، وأن لها حياة أخرى بعد الحياة الدنيا تتمتع فيها بنعيم أو تشقى فيها بعذاب أليم، وأن السعادة والشقاء في تلك الحياة الباقية معقودان بأعمال المرء في حياته الفانية، سواء كانت تلك الأعمال قلبية كالاعتقادات و المقاصد والإرادات، أو بدنية أنواع العبادات والمعاملات.

اتفقت كلمة البشر موحدين ووثنيين ملبين وفلاسفة إلا قليلا لا بقيام لهم وزن على أن لنفس الإنسان بقاء تحيا به بعد مفارق البدن و أنها لا تموت موت فناء [1] وإنما الموت المحتوم هو ضرب من البطون و الخفاء، وإن اختلفت منازعهم في تصوير ذلك البقاء وفيما تكون عليه النفس فيه، وتباينت مشاربهم

([1]) يريد بالفناء المنفى الزوال المطلق وإلا فالفناء يطلق على ما فسر به الموت المحتوم

في طرق الاستدلال عليه فمن قائل بالتناسخ في أجساد البشر أو الحيوان على الدوام ومن ذاهب إلى أن التناسخ ينتهى عندما تبلغ النفس أعلى مراتب الكمال، ومنهم من قال إنها متى فارقت الجسد عادت إلى تجردها عن المادة حافظة لما فيه لذتها أو ما به شقوتها، ومنهم من رأى أنها تتعلق بأجسام أثيرية، ألطف من هذه الأجسام المرئية. وكان اختلاف المذاهب في كنه السعادة والشقاء والآخرويين وفيما هو متاع الحياة الآخرة وفي الوسائل التي تعد للنعيم أو تبعد عن النكال الدائم. و تضارب آراء الأمم فيه قديما وحديثا مما لا تكاد تحصى وجوهه.

هذا الشعور العام بحياة بعد هذه الحياة المنبث في جميع الأنفس عالمها وجاهلها، وحشيها ومستأنسها، باديها وحاضرها، قديمها وحديثها لا يمكن أن يعد ضلة عقلية، أو نزعة وهمية، وإنما هو من الإلهامات التي اختص بها هذا النوع، فكما ألهم الإنسان أن عقله وفكرة هما عماد بقائه في هذه الحياة الدنيا، وإن شذ أفراد منه ذهبوا إلى أن العقل والفكر ليسا بكافيين للإرشاد في عمل ما. أو إلى أنه لا يمكن للعقل أن يوقن باعتقاد، ولا للفكر أن يصل إلى مجهول، بل قالوا إنه لا وجود للعالم إلا في اختراع الخيال، وأنهم شاكون حتى في أنهم شاكون، ولم يطعن شذوذ هؤلاء في صحة الإلهام العام المشعر لسائر أفراد النوع أن الفكر والعقل هما ركن الحياة وأس البقاء إلى الأجل المحدود، كذلك قد ألهمت العقول وأشعرت النفوس أن هذا العمر القصير ليس هو منتهى ما للانسان في الوجود، بل الإنسان ينزع هذا الجسد كما ينزع الثوب عن البدن، ثم يكون حيا باقيا في طور آخر وإن لم يدرك كنهه.

ذلك إلهام يكاد يزاحم البديهة في الجلاء، بشعر كل نفس أنها خلقت مستعدة لقبول معلومات غير متناهية من طرق غير محصورة، شيقة إلى لذائذ

غير محدودة ولا واقفة عند غاية، مهيأة لدرجات من الكمال لا تحددها أطراف المراتب والغابات، معرضة لآلام من الشهوات ونزعات الأهواء، ونزوات الأمراض على الأجساد. ومصارعة الجواء والحاجات، وضروب من مثل ذلك لا تدخل تحت عد، ولا تنتهي عند حد، إلهام يلفتها بعد هذا الشعور إلى أن واهب الوجود للأنواع، إنما قدر الاستعداد بقدر الحاجة في البقاء ولم يعهد في تصرفه العبث والكيل الجزاف، فما كان استعداده القبول ما لا يتناهى من معلومات وآلام ولذائذ وكمالات، لا يصح أن يكون بقاؤه قاصرا على أيام أو سنين معدودات.

شعور يهيج بالأرواح إلى تحسس هذا البقاء الأبدي، وما عسى أن تكون عليه متى وصلت إليه. وكيف الاهتداء وأين السبيل، وقد غاب المطلوب وأعوز الدليل ؟ شعورنا بالحاجة إلى استعمال عقولنا في تقويم هذه المعيشة القصيرة الأمد لم يكفنا في الاستقامة على المنهج الأقوم، بل لزمتنا الحاجة إلى التعليم والإرشاد وقضاء الأزمنة والأعصار، في تقويم الأنظار وتعديل الأفكار وإصلاح الوجدان، وتثقيف الأذهان، ولا تزال إلى الآن من هم هذه الحياة الدنيا في اضطراب لا ندري متى نتخلص منه، وفي شوق إلى طمأنينة لا نعلم متى ننتهي إليها.

هذا شأننا في فهم عالم الشهادة فاذا نؤمل من عقولنا وأفكارنا في العلم بما في عالم الغيب ؟ هل فيما بين أيدينا من الشاهد معالم نهتدى بها إلى الغائب ؟ وهل في طوق الفكر ما يوصل كل أحد إلى معرفة ما قدر له في حياة يشعر بها، وبأن لا مندوحة عن القدوم عليها، ولكن لم يوهب من القوة ما ينفذ إلى تفصيل ما أعد له فيها والشئون التي لابد أن يكون عليها بعد مفارقة ما هو فيه، أو إلى معرفة بيد من يكون تصريف تلك الشئون؟

هل في أساليب النظر ما يأخذ بك إلى اليقين بمناطها من الاعتقادات والأعمال، وذلك الكون مجهول لديك، وتلك الحياة في غاية الغموض بالنسبة إليك ؟ لا فإن الصلة بين العالمين تكاد تكون منقطعة في نظر العقل ومرامى المشاعر، ولا اشتراك بينهما إلا فيك أنت، فالنظر في المعلومات الحاضرة، لا يوصل إلى اليقين بحقائق تلك العوالم المستقبلة.

أفليس من حكمة الصانع الحكيم، الذي أقام أمر الإنسان على قاعدة الإرشاد والتعليم، الذي خلق الإنسان، وعلمه البيان، علمه الكلام للتفاهم، والكتاب للتراسل، أن يجعل من مراتب الأنفس البشرية مرتبة يعد لها بمحض فضله بعض من يصطفيه من خلقه، وهو أعم حيث يحمل رسالته ؟ يميزهم بالفطر السليمة، ويبلغ بأرواحهم من الكمال ما يليقون معه للاستشراق بأنوار علمه، والأمانة على مكنون سره ما لو انكشف لغيرهم انكشافه لهم لفاضت له نفسه، أو ذهبت بعقله جلالته وعظمه، فيشرفون على الغيب بإذنه، ويعلمون ما سيكون من شأن الناس فيه، ويكونون في مراتبهم العلوية على نسبة من العالمين : نهاية الشاهد وبداية الغائب، فهم في الدنيا كأنهم ليسوا من أهلها، وهم وفد الآخرة في لباس من ليس من سكانها، ثم يتلقون من أمره أن يحدثوا عن جلاله، وما خفي عن العقول من شئون حضرته الرفيعة ما يشاء أن يعتقده العباد فيه وما قدر أن يكون له مدخل في سعادتهم الأخروية، وأن يبينوا للناس من أحوال الآخرة ما لابد لهم من علمه. معبرين عنه بما تحمله طاقة عقولهم، ولا يبعد من متناول أفهامهم، وأن يبلغوا عنه شرائع عامة تحدد لهم سيرهم في تقويم نفوسهم وكبح شهواتهم، وتعلمهم من الأعمال ما هو مناط سعادتهم وشقائهم، في ذلك الكون المغيب من مشاعرهم بتفصيله اللاصق علمه بأعماق ضمائرهم في إجماله. ويدخل في ذلك جميع الأحكام المتعلقة بكليات الأعمال ظاهرة

وباطنة، ثم يؤيدهم بما لا تبلغه قوى البشر من الآيات، حتى تقوم بهم الحجة، ويتم الإقناع بصدق الرسالة، فيكونون بذلك رسلا من لدنه إلى خلقه مبشرين ومنذرين.

لا ريب أن الذي أحسن كل شيء خلقه، وأبدع في كل كائن صنعه وجاد على كل حى بما إليه حاجته، ولم يحرم من رحمته حقيراً ولا جليلا من خلقه، يكون من رأفته بالنوع الذي أجاد صنعه، وأقام له من قبول العلم ما يقوم مقام المواهب التي اختص بها غيره، أن ينقذه من حيرته ويخلصه من التخبط في أم حياتيه، والضلال في أفضل حاليه.

يقول قائل : ولم لم يودع في الغرائز ما تحتاج إليه من العلم، ولم يضع فيها الانقياد إلى العمل وسلوك الطريق المؤدية إلى الغاية في الحياة الأخرى ؟ وما هذا النحو من عجائب الرحمة في الهداية والتعليم ؟ وهو قول يصدر عن شطط العقل، والغفلة عن موضوع البحث – وهو النوع الإنساني – ذلك النوع على مابه، وما دخل في تقويم جوهره من الروح المفكر، وما اقتضاه ذلك من الاختلاف في مراتب الاستعداد باختلاف أفراده، وأن لا يكون كل فرد منه مستعداً لكل حال بطبعه وأن يكون وضع وجوده على عماد البحث والاستدلال فلو ألهم حاجاته كما تلهم الحيوانات لم يكن هو ذلك النوع، بل كان إما حيواناً آخر كالنحل والنمل، أو ملكا من الملائكة ليس من سكان هذه الأرض.

المسلك الثاني في بيان الحاجة إلى الرسالة

يؤخذ من طبيعة الإنسان نفسه

أرتنا الأيام غابرها وحاضرها أن من الناس من يختزل نفسه من جماعة البشر، وينقطع إلى بعض الغابات، أو إلى رءوس الجبال. ويستأنس إلى الوحش، ويعيش عيش الأوابد من الحيوان يتغذى بالأعشاب وجذور النبات، ويأوي إلى الكهوف والمغاور، ويتقي بعض العوادي عليه بالصخور والأشجار، ويكتفي من الثياب بما يخصف من ورق الشجر، أو جلود الهالك من حيوان البري، ولا يزال كذلك حتى يفارق الدنيا.

ولكن مثل هذا مثل النحلة تنفرد عن الدبر[1] وتعيش عيشة لا تتفق مع ما قدر لنوعها، وإنما الإنسان نوع من تلك الأنواع التي غرز في طبعها أن تعيش مجتمعة وإن تعددت فيها الجماعات، على أن يكون لكل واحد من الجماعة عمل يعود على المجموع في بقائه. وللمجموع من العمل ما لا غنى للواحد عنه في نمائه وبقائه، وأودع في كل شخص من أشخاصها شعور ما بحاجة إلى سائر أفراد الجماعة

يشملها اسم واحد. وتاريخ وجود الإنسان شاهد بذلك. فلا حاجة إلى الإطالة في بيانه. وكفاك من الدليل على أن الإنسان لا يعيش إلا في جملة ما وهبه من قوة النطق، فلم يخلق لسانه مستعدا لتصوير المعاني في الألفاظ و تأليف العبارات إلا لاشتداد الحاجة إلى التفاهم، وليس الاضطرار إلى التفاهم

---

(1) الدير بالفتح والكسر : جماعة النحل وكذا الزنابير.

بين اثنين أو أكثر، إلا الشهادة بأن لا غنى لأحدهم عن الآخر.

حاجة كل فرد من الجماعة إلى سائرها مما لا يشتبه فيه، وكلمة كثرت مطالب الشخص في معيشته ازدادت به الحاجة إلى الأيدي العاملة، فتشتد الحاجة، وعلى أثرها الصلة من الأهل إلى العشيرة ثم إلى الأمة وإلى النوع بأسره، وأيامنا هذه شاهدة على أن الصلة التابعة للحاجة تعم النوع كما لا يخفي.

هذه الحاجة خصوصاً في الأمة التي حققت عنوانها، لها صلات و علائق ميزتها عما سواها : حاجة في البقاء، حاجة في التمتع بمزايا الحياة، حاجة في جلب الرغائب ودفع المكاره من كل نوع.

لو جرى أمر الإنسان على أساليب الحلقة في غيره، لكانت هذه الحاجة من أفضل عوامل المحبة بين أفراده، عامل يشعر كل نفس أن بقاءها مرتبط ببقاء الكل. فالكل منها بمنزلة بعض قواها المسخرة لمنافعها ودرء مضارها، والمحبة عماد السلم ورسول السكينة إلى القلوب، هي الدافع لكل من المتحابين على العمل لمصلحة الآخر، الناهض بكل منها للمدافعة عنه في حالة الخطر، فكان من شأن المحبة أن تكون حفاظاً النظام الأمم وروحاً لبقائها. وكان من حالها أن تكون ملازمة للحاجة على مقتضى سنة الكون، فإن المحبة حاجة لنفسك إلى من تحب أو ما تحب، فإن اشتدت كانت ولعاً وعشقاً.

لكن كان من قوانين المحبة أن تنشأ وتدوم بين متحابين إذا كانت الحاجة إلى ذات المحبوب أو ما هو فيها لا يفارقها، ولا يكون هذا النوع منها في الإنسان إلا إذا كان منشؤه أمراً في روح المحبوب وشمائله التي لا تفارق ذاته، حتى تكون لذة الوصول في نفس الاتصال لا في عارض يتبعه. فإذا عرض التبادل والتعارض ولوحظ في العلاقة بينهما تحولت المحبة إلى رغبة في الانتفاع بالغوض، وتعلقت بالمنتفع به لا بمصدر الانتفاع. وقام بين الشخصين مقام المحبة

إما سلطان القوة أو ذلة المخافة أو الدهان والخديعة من الجانبين.

يحب الكلب سيده ويخلص له ويدافع عنه دفاع المستميت لما يرى أنه مصدر الإحسان إليه في سداد عوزه، فصورة شبعة ورديه وحمايته مقرونة في شعوره بصورة من يكفلها له، فهو يتوقع فقدها بفقده فيحرص عليه حرصه على حياته، ولو أنه انتقل من حوزته إلى حوزة آخر وغاب عنه السنين ثم رآه معرضا لخطر ما عادت إليه تلك الصورة يصل بعضها بعضا واندفع إلى خلاصه بما تمكنه القوة.

ذلك لأن الإلهام الذي هدى به شعور الكلب ليس ما تتسع به المذاهب، فوجدانه يتردد بين الإحسان ومصدره، وليس وراءها مذهب، فحاجته في سد عوزه هي حاجته إلى القائم بأمره، فيحبه محبته لنفسه، ولا يبخس منها شوب التعاوض في الخدمة.

أما الإنسان – وما أدراك ما هو – فليس أمره على ذلك. ليس من يلهم ولا يتعلم، ولا ممن يشعر ولا يتفكر، بل كان كماله النوعي في إطلاق مداركه عن القيد، ومطالبه عن النهايات، وتسليمه على صغره إلى العالم الأكبر على جلالته وعظمه، يصارعه بعوامله وهي غير محصورة حتى يعتصر منه منافعه وهي غير محدودة، وإيداعه من قوى الإدراك و العمل ما يعينه على المغالبة، ويمكنه من المطالبة بسعيه ورأيه، ويتبع ذلك أن يكون له في كل كائن ما يصل إليه لذة، وبجوار كل لذة ألم ومخافة، فلا تنتهي رغائبه إلى غاية، ولا تقف مخاوفه عند نهاية (٧٩ : ١٩إن الإنسان خلق هلوعا ٢٠ إذا مسه الشر جزوعا ٢١ وإذا مسه الخير منوعا).

تفاوتت أفراده في مواهب الفهم وفي قوى العمل، وفي الهمة والعزم، فمنهم المقصر ضعفا أو كسلا، المتطاول في الرغبة شهوة وطمعا. يرى في أخيه أنه

العون له على ما يريد من شئون وجوده، لكنه يذهب من ذلك إلى تخيل اللذة في الاستئثار بجميع ما في يده ولا يقنع بمعاوضته في ثمرة من ثمار عمله، وقد يجد اللذة في أن يتمتع ولا يعمل. ويرى الخير في أن يقيم مقام العمل، إعمال الفكر. في استنباط ضروب الحيل، ليتمتع وإن لم ينفع، ويغلب عليه ذلك حتى يخيل له أن لا ضير عليه لو انفرد بالوجود عمن يطلب مغالبته، ولا يبالى بإرساله إلى عالم العدم بعد سلبه، فكلما حثه الذكر والخيال إلى دفع مخافة أو الوصول إلى لذيذ فتح له الفكر باباً من الحيلة، أو هيأ له وسيلة لاستعمال القوة. فقام التناهب مكان التواهب، وحل الشقاق محل الوفاق، وصار الضابط لسيرة الإنسان إما الحيلة وإما القهر.

هل وقف الهوى بالإنسان عند التنافس في اللذائذ الجسدانية وتجالد أفراده طمعاً في وصول كل إلى ما يظنه غاية مطلبه وإن لم تكن له غاية ؟ كلا ! ولكن قدر له أن تكون له لذائذ روحانية، وكان من أعظم همه أن يشعر بالكرامة له في نفس غيره ممن تجمعه معهم جامعة ما حسبما يمتد إليه نظره، وقد بلغت هذه الشهوة حداً من الأنفس كادت تتغلب على جميع الشهوات، وأخذت لذة الوصول إليها من الأرواح مكانا كاد لا تصعد إليه [1] سائر اللذات، وهي من أفضل العوامل في إحراز الفضائل، وتمكين الصلات بين الأفراد والأمم، وصرفت فيما سيقت لأجله، ولكن انحرف بها السيل كما انحرف بغيرها للأسباب التي أشرنا إليها من التفاوت في مراتب الإدراك و الهمة والعزيمة، حتى خيل لكثير من العقلاء أن يسعى إلى إعلاء منزلته في القلوب بإخافة الأمن [2]

---

(1) الأصل أن يقال : لا تكاد تصعد إليه الخ أو كاد أن لا تصعد إليه

(2) يحتمل أن تكون الكلمة "الآمن" اسم فاعل وهو المناسب لما كان بعده. وأن تكون مصدراً بمعناه وهو ظاهر نسخة المؤلف إذ ليس فيها علامة المد

وإزعاج الساكن، وإشعار القلوب رهبة المخافة لا تهيب الحرمة.

هل يمكن مع هذا أن يستقيم أمر جماعة بني نظامهم وعلق بقاؤهم في الحياة على تعاونهم ورفد بعضهم بعضا في الأعمال ؟ أو لا تكون هذه الأفاعيل السابق ذكرها سببا في تفانيهم ؟ لا ريب أن البقاء على تلك الأحوال من ضروب المحال، فلا بد للنوع الإنساني في حفظ بقائه من المحبة أو ما ينوب منابها.

لجأ بعض أهل البصيرة في أزمنة مختلفة إلى العدل، وظنوا كما ظن بعض العارفين و نطق به في كلمة جليلة "إن العدل نائب المحبة" نعم لا يخلو القول من حكمة. ولكن من الذي يضع قواعد العدل ويحمل الكافة على رعايتها ؟ قيل ذلك هو العقل ؟ فكما كان الفكر والذكر والخيال ينابيع الشقاء، كذلك تكون وسائل السعادة وفيها مستقر السكينة، وقد رأينا أن اعتدال الفكر وسعة العلم وقوة العقل وأصالة الحكم. تذهب بكثير من الناس إلى ما وراء حجب الشهوات. وتعلو بهم فوق ما تخيله المخاوف، فيعرفون لكل حق حرمته، ويميزون بين لذة ما يفنى ومنفعة ما يبقى، وقد جاء منهم أفراد في كل أمة وضعوا أصول الفضيلة وكشفوا وجوه الرذيلة، وقسموا أعمال الإنسان إلى ما تحضر لذته وتسوء عاقبته وهو ما يجب اجتنابه، وإلى ما قد يشق احتماله، ولكن تسر مغبته وهو ما يجب الأخذ به ومنهم من أنفق في الدعوة إلى رأيه نفسه وماله، وقضى شهيد إخلاصه في دعوة قومه إلى ما يحفظ نظامهم، فهؤلاء العقلاء هم الذين يضعون قواعد العدل، وعلى أهل السلطان أن يحملوا الكافة على رعايتها، وبذلك يستقيم أمر الناس.

هذا قول لا يجافي الحق ظاهره، ولكل هل سمع في سيرة الإنسان وهل ينطبق على سنته أن يخضع كافة أفراده أو الغالب منهم لرأي العاقل لمجرد أنه

الصواب ؟ وهل كفي في إقناع جماعة منه كشعب أو أمة قول عاقلهم : إنهم مخطئون وإن الصواب فيه يدعوهم إليه ؟ وإن أقام على ذلك من الأدلة ما هو أوضح من الضياء، وأجلى من ضرورة المحبة للبقاء ؟ كلا !لم يعرف ذلك في تاريخ الإنسان ولا هو ما ينطبق على سنته، فقد تقدم لنا أن مهب الشقاء هو تفاوت الناس في الإدراك، وهم مع ذلك يدعون المساواة في العقل والتقارب في الأصول، ولا يعرف جمهورهم من حال الفاضل إلا كما يعرف من أمر الجاهل. ومن لم يكن في مرتبتك من العقل لم يذق مذاقك من الفضل فمجرد البيان العقل لا يدفع نزاعاً ولا يرد طمأنينة، وقد يكون القائم على ما وضع من شريعة العقل ممن يزعم أنه أرفع من واضعها، فيذهب بالناس مذهب شهواته فتذهب حرمتها، ويتهدم بناؤها، ويفقد ما قصده بوضعها..

أضف إلى ما سبق من نزعات الفكر ونزعات الأهواء شعوراً هو ألصق بالغريزة البشرية وأشد لزوما لها. كل إنسان مهما علا فكره وقوى عقله، أو ضعفت فطنته وانحطت فطرته، يجد نفسه أنه مغلوب لقوة أرفع من قوته، وقوة ما أنس منه الغلبة عليه ما حوله وأنه محكوم بإرادة تصرفه و تصرف ما هو فيه من العوالم في وجوه ربما لا تعرفها معرفة العارفين، ولا تتطرق إليها إرادة المختارين.

تشعر كل نفس أنها مسوقة لمعرفة تلك القوة العظمي فتطلبها من جسمها تارة ومن عقلها أخرى، ولا سبيل لها إلا الطريق التي حددت لنوعها وهي طريق النظر، فذهب كل في طلبها وراء رائد الفكر. فمنهم من تأولها بعض الحيوانات لكثرة نفعها أو شدة ضررها، ومنهم من تمثلت له في بعض الكواكب لظهور أثرها، ومنهم من حجبته الأشجار والأحجار لاعتبارات له فيها، ومنهم من تبدت له آثار قوى مختلفة في أنواع متفرقة تتماثل في أفراد كل نوع وتتخالف

بتخالف الأنواع فجعل لكل نوع إلهاً.

ولكن كلما رق الوجدان و لطفت الأذهان ونفذت البصائر، ارتفع الفكر وجلت النتائج، فوصل من بلغ به عليه بعض المنازل. من ذلك إلى معرفة هذه القدرة الباهرة، واهتدى إلى أنه قدرة واجب الوجود.

غير أن من أسرار الجبروت ما غمض عليه فلم يسلم من الخيط فيه، ثم لم يكن له الميزة الفائقة في قومه ما يحملهم على الاهتداء بهديه فبقي الخلاف ذائعاً والرشد ضائعاً.

اتفق الناس في الإذعان لما فاق قدرهم وعلا متناول استطاعاتهم، لكنهم اختلفوا في فهم ما تلجئهم الفطرة إلى الإذعان له اختلافا كان أشد أثرا في التقاطع بينهم وإثارة أعاصير الشقاق فيهم، من اختلافهم في فهم النافع والضار لغلبة الشهوات عليهم.

إن كان الإنسان قد فطر على أن يعيش في جملة ولم يمنح مع تلك الفطرة ما منحه النحل وبعض أفراد النمل مثلا من الإلهام الهادي إلى ما يلزم لذلك، وإنما ترك إلى فكره يتصرف به على نحو ما سبق، كما فطر على الشعور بقاهر تنساق نفسه بالرغم عنها إلى معرفته، ولم يفض عليه مع هذا الشعور عرفانه [1] بذات ذلك القاهر ولا صفاته. وإنما ألقي في مطارح النظر، تحمله الأفكار في مجاريها، وترمى به إلى حيث يدرى، وفي كل ذلك الويل على جامعته، والخطر على وجوده، فهل منى هذا النوع بالنقص ورزئ بالقصور عن مثل ما بلغه أضعف الحيوانات وأحطها في منازل الوجود ؟ نعم هو كذلك، لولا ما أتاه

---

(1) لعل الأصل "عرفان"، فان في إضافة العرفان المني إلى المنفي عنه إثباتا له فان الأصل في مثل هذه الإضافة الملك وما في معناه. وهذا جمع بين النفي والإثبات كما بينه الإمام عبد القاهر في دلائل الإعجاز وهو ظاهر بنفسه لمن تأمله والناس عنه غافلون.

الصانع الحكيم من ناحية ضعفه.

الإنسان عجيب في شأنه : يصعد بقوة عقله إلى أعلى مراتب الملكوت، ويطاول بفكره أرفع معالم الجبروت[1]، ويسامى بقوته ما يعظم عن أن يسامى من قوى الكون الأعظم، ثم يصغر ويتضاءل وينحط إلى أدنى درك من الاستكانة والخضوع متى عرض له أمر ما لم يعرف سببه ولم يدرك منشأه، ذلك لسر عرفه المستبصرون، واستشعرته نفوس الناس أجمعين.

من ذلك الضعف قيد إلى هداه. ومن تلك الضعة أخذ بيده إلى شرف سعادته، أكمل الواهب الجواد لجملته ما اقتضت حكمته في تخصيص نوعه بما يميزه عن غيره أو ينقص من أفراده [2] وكما جاد على كل شخص بالعقل المصرف للحواس، لينظر في طلب اللقمة وستر العورة والتوقي من الحر والبرد، جاد على الجملة بما هو أمس بالحاجة في البقاء، وآثر في الوقاية من غوائل الشقاء، وأحفظ لنظام الاجتماع الذي هو عماد كونه بالإجماع – من عليه بالنائب الحقيقي عن المحبة، بل الراجع بها إلى النفوس التي أقفرت منها، لم يخالف سنته فيه، من بناء كونه على قاعدة التعليم والإرشاد، غير أنه أتاه مع ذلك من أضعف الجهات فيه وهي جهة الخضوع والاستكانة، فأقام له من بين أفراده مرشدين هادين، وميزهم من بينها بخصائص في أنفسهم لا يشركهم فيها سواه، وأيد ذلك زيادة في الإقناع بآيات باهرات تملك النفوس، وتأخذ الطريق على سوابق العقول، فيستخذي الطامح. ويذلى الجامح، ويصدم بها عقل العاقل

---

(1) "الملكوت" صيغة مبالغة للملك ولا يطلق إلا على ما الله تعالى منه دون ملك البشر ومثله الرحموت والرهبوت والجبروت وهذا من الجبر وهو إصلاح الكسر، وللملكوت والجبروت معنى آخر فى اصطلاح الصوفية يراجع في تعريفات السيد الجرجاني وغيرها

(2) أي أكمل للمجموع مالا يصل إليه كسب الأفراد مما يفضل به النوع غيره وهو الوحي الذي هو له كالعقل للأفراد

فيرجع إلى رشده، وينبهر لها بصر الجاهل فيرتد عن غيه.

يطرقون القلوب بقوارع من أمر الله، ويدهشون المدارك ببواهر من آياته، فيحيطون العقول بمالا مندوحة عن الإذعان له، ويستوى في الركون لما يجيئون به المالك والملوك، والسلطان والصعلوك، والعاقل والجاهل، والمفضول والفاضل، فيكون الإذعان لهم أشبه بالاضطرارى منه بالاختياري النظرى.

يعلمونهم ما شاء الله أن يصلح به معاشهم ومعادهم، وما أراد أن يعلموه من شئون ذاته وكمال صفاته – وأولئك هم الأنبياء والمرسلون – فبعثة الأنبياء صلوات الله عليهم من متمات كون الإنسان ومن أهم حاجاته في بقائه، ومنزلتها من النوع منزلة العقل من الشخص نعمة أتمها الله (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) وسنتكلم على وظيفتهم بنوع من التفصيل فيما بعد.

إمكان الوحي

الكلام في إمكان الوحي يأتي بعد تعريفه لتصوير المعنى الذي يراد منه ولنعرف المعنى الحاصل بالمصدر فيفهم معنى المصدر نفسه. ولا يعنينا ما تثيره الألفاظ في الأذهان. ولنذكر من اللغة ما يناسبه، يقال : وحيت إليه وأوحيت – إذا كلمته بما تخفيه عن غيره والوحي مصدر من ذلك، والمكتوب والرسالة. وكل ما ألقيته إلى غيرك ليعلمه. ثم غلب فيها يلقي إلى الأنبياء من قبل الله. وقيل : الوحي إعلام في خفاء، ويطلق و يراد به الموحي.

وقد عرفوه شرعاً : أنه إعلام الله تعالى لنبي من أنبيائه بحكم شرعى ونحوه. أما نحن فنعرفه على شرطنا بأنه عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة : والأول بصوت يتمثل لسمعه [1] أو بغير صوت. ويفرق بينه وبين الإلهام بأن الإلهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق إلى ما يطلب على غير شعور منها من أين أتي، وهو، أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور.

أما إمكان حصول هذا النوع من العرفان (الوحى) وانكشاف ما غاب من مصالح البشر عن عامتهم لمن يختصه الله بذلك، وسهولة فهمه عند العقل، فلا أراه مما يصعب إدراكه إلا على من لا يريد أن يدرك، ويجب أن يرغم نفسه الفهامة على أن لا تفهم : نعم يوجد في كل أمة وفي كل زمان أناس يقذف بهم الطيش والنقص في العلم إلى ما وراء سواحل اليقين، فيسقطون في غمرات من

---

(1) كصلصلة الجرس أو كلام الملك، كما ورد في الحديث الثاني من صحيح البخارى ا هـ من حاشية نسخة المؤلف.

الشك في كل ما لم يقع تحت حواسهم الخمس، بل قد يدركهم الريب فيما هو من متناولها. كما سبقت الإشارة إليه، فكأنهم بسقطتهم هذه انحطوا إلى ما هو أدنى من مراتب أنواع أخرى من الحيوان، فينسون العقل وشئونه، وسره ومكنونه، ويجدون في ذلك لذة الإطلاق عن قيود الأوامر والنواهي. بل عن محابس الحشمة التي تضمهم إلى التزام ما يليق، وتحجزهم عن مقارفة مالا يليق، كما هو حال غير الإنسان من الحيوان، فإذا عرض عليهم شيء من الكلام في النبوات والأديان، وهم من أنفسهم هام بالإصغاء، دافعوه بما أوتوا من الاختبار في النظر، وانصرفوا عنه، وجعلوا أصابعهم. في آذانهم، حذر أن يخالط الدليل أذهانهم، فيلزمهم العقيدة، وتتبعها الشريعة، فيحرموا لذة ما ذاقوا وما يحبون أن يتذوقوا وهو مرض في الأنفس والقلوب يستشفي منه بالعلم إن شاء الله.

قلت : أي استحالة في الوحي وأن ينكشف لفلان. مالا ينكشف لغيره من غير فكر ولا ترتيب مقدمات، مع العلم أن ذلك من قبل واهب الفكر، ومانح النظر، متى حفت العناية من. ميزته هذه النعمة.

ما شهدت به البديهة أن درجات العقول متفاوتة يعلو بعضها بعضا، وأن الأدنى منها لا يدرك ما عليه الأعلى إلا على وجه من الإجمال، وأن ذلك ليس لتفاوت المراتب في التعلم فقط. بل لابد معه من التفاوت في الفطر التي لا مدخل فيها الاختيار الإنسان و كسبه. ولا شبهة في أن من النظريات عند بعض العقلاء ما هو بديهي عند من هو أرقى منه. ولا تزال المراتب ترتقي في ذلك إلى مالا يحصره العدد، وأن من أرباب الهمم وكبار النفوس ما ير – البعيد عن صغارها [1] قريبا فيسعى إليه ثم يدركه، والناس دو ينكرون بدايته، ويعجبون لنهايته، ثم يألفون ما صار إليه كأنه من المعروف الذي لا ينازع، والظاهر الذي

(1) أي برى البعيد عن صغار النفوس والهمم قريباً عنده.

لا يجاحد، فإذا أنكره منكر ثاروا عليه. ثورتهم في بادىء الأمر على من دعاهم إليه. ولا يزال هذا الصنف من الناس على قلته ظاهراً في كل أمة إلى اليوم.

فإذا سلم. "ولا محيص عن التسليم" ما أسلفنا من المقدسات

فمن ضعف العقل والنكول عن النتيجة اللازمة لمقدماتها عند الوصول إليها، أن لا يسلم بأن من النفوس البشرية ما يكون لها من نقاء الجوهر بأصل الفترة ما تستعد به من محض الفيض الإلهي لأن تتصل بالأفق الأعلى، وتنتهي من الإنسانية إلى الذروة العليا، وتشهد من أمر الله شهود العيان مالم يصل غيرها إلى تعقله أو تحسسه بعصا الدليل والبرهان، وتتلقى عن العليم الحكيم، ما يعلو وضوحا على ما يتلقاه أحدنا عن أساتذة التعاليم، ثم تصدر عن ذلك العلم إلى تعليم ما علمت ودعوة الناس إلى ما حملت على إبلاغه إليهم، وأن يكون ذلك سنة الله في كل أمة، وفي كل زمان على حسب الحاجة، يظهر برحمته من يختصه بعنايته، ليفي للاجتماع بما يضطر إليه من مصلحته، إلى أن يبلغ النوع الإنساني أشده، وتكون الأعلام التي نصبها لهدايته إلى سعادته كافية في إرشاده، فتختم الرسالة ويغلق باب النبوة، كما سنأتي عليه في رسالة نبينا ﷺ.

أما وجود بعض الأرواح العالية – وهم الملائكة المكرمون- وظهورها لأهل تلك المرتبة السامية، فمهم لا استحالة فيه بعد ما عرفنا من أنفسنا، وأرشدنا إليه العلم قديمه وحديثه من اشتمال الوجود على ما هو ألطف من المادة وإن غيب عنا، فأي مانع من أن يكون بعض هذا الوجود اللطيف مشرقاً لشيء من العمل الإلهي، وأن يكون لنفوس الأنبياء إشراف عليه، فإذا جاء به الخير

الصادق حملنا على الإذعان بصحته [1].

أما تمثل الصوت وأشباح لتلك الأرواح في حس من اختصه الله بتلك المنزلة فقد عهد عند أعداء الأنبياء مالا يبعد عنه في بعض المصابين بأمراض خاصة على زعمهم. فقد سلموا أن بعض معقولاتهم يتمثل في خيالهم ويصل إلى درجة المحسوس فيصدق المريض في قوله إنه يرى ويسمع، بل يجالد ويصارع، ولا شيء من ذلك في الحقيقة بواقع، فإن جاز التمثل في الصور المعقولة ولا منشأ لها إلا في النفس، وأن ذلك يكون عند عروض عارض على المخ، فلم لا يجوز تمثل الحقائق المعقولة في النفوس العالية، وان يكون ذلك لها عندما تنزع عن عالم الحس، وتتصل بحظائر القدس. وتكون تلك الحال من لواحق صحة العقل في أهل تلك الدرجة الاختصاص مزاجهم بما لا يوجد في مزاج غيرهم؟ وغاية ما يلزم عنه أن يكون العلاقة أرواحهم بأبدانهم شأن غير معروف في تلك

العلاقة من سواهم[2] وهو ما يسهل قبوله بل يتحتم، لأن شأنهم في الناس أيضاً غير الشئون المألوفة، وهذه المغايرة من أهم ما امتازول به، وقام منها الدليل على رسالتهم. والدليل على سلامه شهوده وصحة ما يحدثون عنه : أن

---

(1) قال في الأساس : أذعن له سلس وانقاد. وأذعن فلان بحقى : قربه ا هـ ولا المعنيين يصح هنا ولكنه في الأول أظهر

(2) بل ثبت بتجارب الأطباء – حتى الماديين منهم – أن بعض هؤلاء المرضى يخبر ببعض المغيبات وبالأمور قبل وقوعها فيصدق. قال مريض منهم، كثرت أخباره في ذلك، وكان بمصر : إن فلاناً – من أقاربه – في الاسكندرية خرج من داره إلى محطتها قاصدا السفر إلى مصر لعيادتي.. ثم أخبر أنه وصل إلى محطتها ودخل القطار، ثم شغله الطبيب بأمور تهمه حتى إذا ما جاء موعد وصول قطار الإسكندرية إلى مصر قال المريض: قد وصل القطار ونزل فلان منه... ها هو ذا خارج من المحطة وركبه مركبة تحمله إلى هنا. ثم قال : ها هو ذا قد وصل، فإذا هو بالباب وقدم دخل. فالروح التي تدرك مثل هذا. وهو غائب عنها – تعطينا دليلا حسية على إمكان إدراك روح أكمل منها لعلوم من الغيب أعلى مما أدركته هي.

أمراض القلوب تشفي بدوائهم، وأن ضعف العزائم والعقول يتبدل بالقوة في أممهم التي تأخذ بمقالهم ومن المنكر في البديهة : أن يصدر الصحيح من معتل، ويستقيم النظام بمختل..

أما أرباب النفوس العالية، والعقول السلمية، من العرفاء ممن لم تدن مراتبهم من مراتب الأنبياء، ولكنهم رضوا أن يكونوا لهم أولياء، وعلى شرعهم ودعوتهم أمناء، فكثير منهم نال حظه من الأنس بما يقارب تلك الحال من النوع أو الجنس , لهم مشارفة في بعض أحوالهم على شيء في عالم الغيب ولهم مشاهد صحيحة في عالم المثال لا تنكر عليهم لتحقيق حقائقها في الواقع، فهم لذلك لا يستبعدون شيئا ما يحدث به عن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم. ومن ذاق عرف، ومن حرم انحرف. ودليل صحة ما يتحدثون به وعنه : ظهور الأثر الصالح منهم، وسلامة أعمالهم مما يخالف شرائع أنبيائهم، وطهارة فطرهم مما ينكره العقل الصحيح أو يمجه النوق السليم، واندفاعهم بباعث من الحق الناطق في سرائرهم. المتلالىء في بصائرهم، إلى دعوة من يحف بهم إلى ما فيه خير العامة، وترويح قلوب الخاصة، ولا يخلو العالم من متشبهين بهم، ولكن ما أسرع ما ينكشف حالهم ويسوء مآلهم، ومآل من غرروا به، ولا يكون لهم إلا سوء الأثر في تضليل العقول وفساد الأخلاق، وانحطاط شان القوم الذين رزئوا بهم، إلا أن يتداركهم الله بلطفه، فتكون كلمتهم الخبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار.

فلم يبق بين المنكرين لأحوال الأنبياء و مشاهدهم و بين الإقرار بإمكان ما أنبؤا به وبوقوعه إلا حجاب من العادة وكثيراً ما حجب العقول حتى عن إدراك أمور معتادة.

وقوع الوحي والرسالة

الدليل على رسالة نبي وصدقه فيما يحكي عن ربه ظاهر للشاهد الذي يرى حاله، ويبصر ما آتاه الله من الآيات البينات، ويحقق بالعيان ما يغنيه عن البيان، كما سلف في الوجه الأول من الكلام على الرسالة، وأما للغائب عن زمن البعثة فدليلها التواتر، وهو كما تبين في علم آخر : رواية خبر عن مشهود [1] من جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب، و آيته : قهر النفس على اليقين بما جاء فيه، كالإخبار بوجود مكة، أو بأن للصين عاصمة تسمى (بكين).

وسبب استحالة التواطؤ على الكذب استيفاء الخبر لشرائط معلومة وخلوه من عوارض تضعف الثقة به، ومرجع كل ذلك إلى العدد، و بعد الراوي عن التشيع لمضمون الخبر.

لا نزاع بين العقلاء في أن هذا النوع من الأخبار يحصل اليقين بالمخبر به، وإنما النزاع في اعتبارات تتعلق به. ومن الأنبياء ما استوفي الخبر عنهم شرائط النواتر، كإبراهيم وموسى و عيسى. وما جاء به الخبر: أنهم لم يكونوا فيمن بعثوا بينهم بالأقوى سلطانا، ولا بالأكثر مالا، ولم يختصهم أحد بالعناية بهم لتعليمهم علم ما دعوا إليه، وغاية الأمر : أنهم لم يكونوا من الأدنين الذين تعافهم النفوس. وتنبو عنهم الأنظار، ومع ذلك واستحكام السلطان لغيرهم ووفرة المال لديه، واستعلائه عليهم بما كسب من العلم قاموا بدعوة الناس إلى الله على رغم الملوك وأجنادهم، وصاحوا بهم صبيحة زلزلتهم في عروشهم، وادعوا أنهم

([1]) قوله "مشهود" أي شيء شهده المخبرون، وحضروا وقوعه فكان معلوماً بالحس قطعا، كإخبار من سمحوا قولا بأنهم سمعوه. ومنه تواتر القرآن وبعض الأخبار دون كتب أهل الكتاب، فانه ليس عندهم أسانيد متصلة في نقلها لا متواترة ولا أحادية.

يبلغون عن خالق السموات والأرض ما أراد شرعه للناس، وأقاموا من الدليل ما تصاغرت دونه قوة المعارضة، ثم ثبتت في الكون شرائعهم ثبات الغريزة في الفطر، وكان الخير لأممهم في إتباع ما جاءوا به. حالفهم القوة واحتضنتهم السعادة ما كانوا قائمين عليها، ورزأم الضعف وغالبهم الشقاء ما انحرفوا عنها وخلطوا فيها، فهذا وما أقاموه من الأدلة عند التحدي لا يصلح معه في العقل أن يكونوا كاذبين في حديثهم عن الله، ولا في دعواهم أنه كان يوحى إليهم ما شرعوا للناس، على أن من لا يعتقد ما يقول لا يبقى لمقاله أثر في العقول، والباطل لا بقاء له إلا في الغفلة عنه، كالنبات الخبيث في الأرض الطيبة ينبت بإهمالها، وينمو[1] بإغفالها، فإذا لامستها عناية يد الزارع غلبه الخصب وذهب به الزكاء، ولكن تلك الديانات التي جاء بها أولئك الأنبياء قامت في العالم الإنسان ما شاء الله مما قدر لها مقام سائر قواه، مع كثرة المعارضين، وقوة سلطان المغالبين، فلا يمكن أن يكون أسها الكذب ودعامتها الحيلة، وكلامنا هذا في جوهرها الذي يلوح دائما في خلال ما ألحق بها المبتدعون.

وأما بقية الرسل ما يجب علينا الإيمان بهم[2] فيكفي في إثبات نبوتهم إثبات رسالة نبينا صلى الله عليه و سلم فقد أخبرنا برسالتهم وهو الصادق فيما بلغ به، وسنأتي على الكلام في رسالة نبينا مُحَمَّد ﷺ في باب على حدته إن شاء الله.

---

(1) نما ينمو لغة ضعيفة في نمى ينمى، شاع استعمالها في عصرنا

(2) أي بالتفصيل، وهم الذين صرح القرآن برسالتهم وذكرهم بأسمائهم. وعددهم ٢٣ أو ٢٤ او ٢٥ خلاف

وظيفة الرسل عليهم السلام

تبين ما تقدم في حاجة العالم الإنساني إلى الرسل أنهم من الأمم بمنزلة العقول من الأشخاص، وأن بعثتهم حاجة من حاجات العقول البشرية، قضت رحمة المبدع الحكيم بسدادها، ونعمة من نعم واهب الوجود ميز بها الإنسان عن بقية الكائنات من جنسه

– ولكنها حاجة روحية، وكل ما لامس الحس منها فالقصد فيه إلى الروح وتطهيرها من دنس الأهواء الضالة، أو تقويم ملكاتها أو إيداعها ما فيه سعادتها في الحياتين.

وأما تفصيل طرق المعيشة والحذق في وجوه الكسب، وتطاول شهوات العقل إلى درك ما أعد للوصول إليه من أسرار العلم، فذلك مما لا دخل للرسالات فيه إلا من وجه العظة العامة والإرشاد إلى الاعتدال فيه، وتقرير أن شرط ذلك كله أن لا يحدث ريباً في الاعتقاد بأن للكون إلهاً واحداً قادراً عالماً حكماً متصفاً بما أوجب الدليل أن يتصف به، وباستواء نسبة الكائنات إليه في أنها مخلوقة له وصنع قدرته، وإنما تفاوتها فيما اختص به بعضها من الكمال، وشرطه أن لا ينال شيء من تلك الأعمال السابقة أحداً من الناس بشر في نفسه أو عرضه أو ماله بغير حق يقتضيه نظام عامة الأمة على ما حدد في شريعتها.

يرشدون العقل إلى معرفة الله وما يجب أن يعرف من صفاته، ويبينون الحد الذي يجب أن يقف عنده في طلب ذلك العرفان[1] على وجه لا شق عليه

(1) هو أن لا يبحث عن كنه ذاته وصفاته كما تقدم

الاطمئنان إليه[1] ولا يرفع ثقته بما آتاه الله من القوة، يجمعون كلمة الخلق على إله واحد لا فرقة معه، ويخلون السبيل بينهم وبينه وحده [2]، وينهضون نفوسهم إلى التعلق به في جميع الأعمال والمعاملات، ويذكرونهم بعظمته بفرض ضروب من العبادات فيما اختلف من الأوقات، تذكرة أن ينسى، وتزكية مستمرة لمن يخشى، تقوى ما ضعف منهم، وتزيد المستيقن يقيناً.

يبينون للناس ما اختلفت عليه عقولهم وشهواتهم، و تنازعته مصالحهم ولذاتهم، فيفصلون في تلك المخاصمات بأمر الله الصادع، ويؤيدون بما يبلغون عنه ما تقوم به المصالح العامة، ولا تفوت به المنافع الخاصة[3].

يعودون بالناس إلى الألفة، ويكشفون لهم سر المحبة ويلفتونهم إلى أن فيها انتظام شمل الجماعة، ويفرضون عليهم مجاهدة. أنفسهم ليستوطنوها [4] قلوبهم، ويشعروها أفئدتهم، يعلمونهم لذلك أن يرعى كل حق الآخر وإن كان لا يغفل حقه، وأن لا يتجاوز في الطلب حده، وأن يعين قويهم ضعيفهم، ويمد غنيهم فقيرهم، ويهدى راشدهم ضالهم. ويعلم عالمهم جاهلهم.

يضعون لهم بأمر الله حدوداً عامة يسهل عليهم أن يردوا إليها أعمالهم، كاحترام الدماء البشرية إلا بحق مع بيان الحق الذي تهدر له، وحظر تناول شيء ما كسبه الغير إلا بحق، مع بيان الحق الذي يبيح تناوله، واحترام الأعراض، مع بيان ما يباح وما يحرم من الأبضاع، ويشرعون لهم مع ذلك أن يقوموا أنفسهم

---

(1) لأنه لا يصل إلى المستحيل الذي يتوقف التسليم به على نبذ العقل الذي هو مشرق الإيمان

(2) أي يدعونه ويتقربون إليه بما شرع لهم من الدين لا بوسائط من الخلق تقر بهم إليه كحجاب الملوك ووزرائهم

(3) أي كالزكاة

(4) أي المحبة

بالملكات الفاضلة كالصدق والأمانة والوفاء بالعقود والمحافظة على العهود[1] والرحمة بالضعفاء والإقدام على نصيحة الأقوياء، والاعتراف لكل مخلوق بحقه بلا استثناء [2].

يحملونهم على تحويل أهوائهم عن اللذائذ الفانية، إلى طلب الرغائب السامية، آخذين في ذلك كله بطرف من الترغيب والترهيب والإنذار والتبشير، حسبما أمرهم الله جل شأنه.

يفصلون في جميع ذلك للناس ما يؤهلهم لرضا الله عنهم، وما يعرضهم لسخطه عليهم، ثم يحيطون بيانهم بنبأ الدار الآخرة وما أعد الله فيها من الثواب وحسن العقبى لمن وقف عند حدوده، وأخذ بأوامره وتجنب الوقوع في محظوراته.

يعلمونهم من أنباء الغيب ما أذن الله لعباده في العلم به[3] ما لو صعب على العقل اكتناهه، لم يشق عليه الاعتراف بوجوده.

بهذا تطمئن النفوس، و تثلج الصدور، ويعتصم المرزوء بالصبر انتظاراً لجزيل الأجر، أو إرضاء لمن بيده الأمر، وهذا ينحل أعظم مشكل في الاجتماع الإنساني لا يزال العقلاء يجهدون أنفسهم في حلة إلى اليوم[4]. ليس من وظائف الرسل ما هو عمل المدرسين ومعلمي الصناعات فليس مما جاءوا له تعليم التاريخ. ولا تفصيل ما يحويه عالم الكواكب ولا بيان ما اختلف من حركاتها. ولا ما استكن من طبقات الأرض. ولا مقادير الطول فيها والعرض.ولا ما تحتاج إليه

---

(1) ومنها المعاهدات الدولية مع الأجانب

(2) أي لا فرق فيه بين مسلم وكافر و قوى و ضعيف وقريب وبعيد.

(3) كالملائكة والجن وأحوال الآخرة.

(4) يعني مشكل العمال وما نشأ عنه من الاشتراكية والفوضوية بأنواعها وأوربة كلها في حيرة من تلافي هذا الأمر. ويسهل تلاقيه بالدين الإسلامي الذي فرض الزكاة وأمر بالصدقة، وهدي الأنفس إلى الرضا بما قسم لها. طلبا لسعادة الآخرة مع بذل الجهد في السعى.

النباتات في نموها. ولا ما تفتقر إليه الحيوانات في بقاء أشخاصها وأنواعها، وغير ذلك مما وضعت له تلك العلوم وتسابقت في الوصول إلى دقائقه الفهوم. فإن ذلك كله من وسائل الكسب و تحصيل طرق الراحة. هدى الله إليه البشر بما أودع فيهم من الإدراك – يزيد من سعادة المحصلين. ويقضي فيه بالنكد على المقصرين، ولكن كانت سنة الله في ذلك أن يتبع طريقة التدرج في الكمال، وقد جاءت شرائع الأنبياء بما يحمل على الإجمال بالسعي فيه وما يكفل التزامه الوصول إلى ما أعد الله له الفطر الإنسانية من مراتب الارتقاء.

وأما ما ورد في كلام الأنبياء من الاشارة إلى شيء مما ذكرنا في أحوال الأفلاك أو هيئة الأرض : فإنما يقصد منه النظر إلى ما فيه من الدلالة على حكمة مبدعه، أو توجيه الفكر إلى الغوص لإدراك أسراره وبدائعه، ولغتهم عليهم الصلاة والسلام في مخاطبة أممهم لا يجوز أن تكون فوق ما يفهمون وإلا ضاعت الحكمة في إرسالهم، ولهذا قد يأتي التعبير الذي سبق إلى العامة بما يحتاج إلى التأويل والتفسير عند الخاصة، وكذلك ما وجه إلى الخاصة يحتاج إلى الزمان الطويل حتى يفهمه العامة، وهذا القسم أقل ما ورد في كلامهم[1].

على كل حال لا يجوز أن يقام الدين حاجزاً بين الأرواح وبين ما ميزها الله به من الاستعداد للعلم بحقائق الكائنات الممكنة بقدر الإمكان. بل يجب أن يكون الدين باعثا لها على طلب العرفان، مطالباً لها باحترام البرهان، فارضاً عليها أن تبذل ما تستطيع من الجهد في معرفة ما بين يديها من العوالم، ولكن مع التزام القصد، والوقوف في سلامة الاعتقاد عند الحد، ومن قال غير ذلك فقد جهل الدين، وجنى عليه جناية لا يغفرها له رب العالمين.

---

(1) أي إذا كان القسم الأول الذي يحتاج إلى التأويل والتفسير قليلا كما تدل عليه كلمة (قد). فهذا أقل منه : وأكثر كلامهم يفهمه جميع العارفين بلغتهم على تفاوت عظيم في الفهم يرفع بعضهم درجات في العلم.

اعتراض مشهور

قال قائل: إن كانت بعثة الرسل حاجة من حاجات البشر، وكمالا لنظام اجتماعهم، وطريقا لسعادتهم الدنيوية والأخروية، فما بالهم لم يزالوا أشقياء، عن السعادة بعداء، يتخالفون ولا يتفقون، يتقاتلون ولا يتناصرون، يتناهبون ولا يتناصفون، كل يستعد للوثبة، ولا ينتظر إلا مجيء النوبة، حشو جلودهم الظلم، وملء قلوبهم الطمع ؛ عد أهل كل ذى دين دينهم حجة لمقارعة من خالفهم فيه، واتخذوا منه سبباً جديدة للعداوة والعدوان فوق ما كان من اختلاف المصالح والمنافع، بل أهل الدين الواحد قد تنشق عصاهم وتختلف مذاهبهم في فهمه، و تتفارق عقولهم في عقائدهم، ويثور بينهم غبار الشر، وتتشبث أهواؤهم بالفتن فيسفكون دماءهم، ويخربون ديارهم إلى أن يغلب قويهم ضعيفهم، فيستقر الأمر للقوة لا للحق والدين، فها هو ذا الدين الذي تقول : إنه جامع الكلمة ورسول المحبة، كان سبباً في الشقاق ومضرما للضغينة فما هذه الدعوى وما هذا الأثر ؟

نقول في جوابه : نعم كل ذلك قد كان، ولكن بعد زمن الأنبياء وانقضاء عهدهم ؛ ووقوع الدين في أيدي من لا يفهمه أو يفهمه. ويغلو فيه. أو لا يغلو فيه، ولكن لم يمتزج حبه بقلبه، أو امتزج بقلبه حب الدين ولكن ضاقت سعة عقله عن تصريفه تصريف الأنبياء أنفسهم، أو الخيرة من تبعتهم، وإلا فقل لنا : أي نبي لم يأت أمته بالخير الجم، والفيض الأعم. ولم يكن دينه وافياً بجميع ما كانت تمس إليه حاجتها، في أفرادها وجملتها؟

أظن أنك لا تخالفنا في أن الجمهور الأعظم من الناس – بل الكل إلا

قليلا – لا يفهمون فلسفة أفلاطون، ولا يقيسون أفكارهم وآراءهم بمنطق أرسطو، بل لو عرض أقرب المعقولات إلى العقول عليهم بأوضح عبارة يمكن أن يأتي بها معبر لما أدركوا منها إلا خيالا لا أثر له في تقويم النفس، ولا في إصلاح العمل، فاعتبر هذه الطبقات في حالها التي لا تفارقها من تلاعب الشهوات بها. ثم انصب نفسك واعظا بينها في تخفيف بلاء ساقه النزاع إليها، فأي الطرق أقرب إليك في مهاجمة شهواتها وردها إلى الاعتدال في رغائبها ؟

من البديهي أنك لا تجد الطريق الأقرب في بيان [1] مضار الإسراف في الرغب، وفوائد القصد في الطلب، وما ينحو نحو ذلك مما لا يصل إليه أرباب العقول السامية إلا بطول النظر، وإنما تجد أقصر الطرق وأقومها أن تأتي إليه من نافذة الوجدان المطلة على سر القهر المحيط به من كل جانب، فتذكره بقدرة الله الذي وهبه ما وهب، الغالب عليه في أدنى شئونه إليه، المحيط بما في نفسه، الأخذ بأزمة هممه، وتسوق إليه من الأمثال في ذلك ما يقرب إلى فهمه، ثم تروى له ما جاء في الدين المعتقد به من مواعظ وعبر، ومن سير السلف في ذلك الدين ما فيه أسوة حسنة، و تنعش روحه بذكر رضاء الله عنه إذا استقام، وسخطه عليه إذا تقحم، عند ذلك يخشع منه القلب، وتدمع العين، ويستخذي الغضب، و تخمد الشهوة، والسامع لم يفهم من ذلك كله إلا أنه يرضى الله وأولياء- إذا أطاع، ويسخطهم إذا عصي، ذلك هو المشهود من حال البشر غابرهم وحاضرهم، ومنكره يسم نفسه أنه ليس منهم.

كم سمعنا أن عيوناً بكت، وزفرات صعدت، وقلوبا خشعت لواعظ الدين، لكن هل سمعت بمثل ذلك بين يدي نصاح الأدب. وزعماء السياسة ؟ متى سمعنا أن طبقة من طبقات الناس يغلب الخير على أعمالهم لما فيه من المنفعة

---

(1) قوله في بيان الخ هو المفعول الثاني لقوله لا تجد.

لعامتهم أو خاصتهم، وينفى الشر من بينهم لما يجلبه عليهم من مضار ومهالك ؟ هذا أمر لم يعهد في سير البشر، ولا ينطبق على فطرهم، إنما قوام الملكات هو العقائد والتقاليد[1] ولا قيام للأمرين إلا بالدين، فعامل الدين هو أقوى العوامل في أخلاق العامة، بل والخاصة، وسلطانه على نفوسهم أعلى من سلطان العقل الذي هو خاصة نوعهم.

قلنا: إن منزلة النبوات من الاجتماع هي منزلة العقل من الشخص أو منزلة العلم المنصوب على الطريق المسلوك، بل نصعد إلى ما فوق.ذلك ونقول : منزلة السمع والبصر، أليس من وظيفة الباصرة التمييز بين الحسن و القبيح من المناظر، و بين الطريق السهلة السلوك والمعابر الوعرة ؟ ومع ذلك فقد يسيء البصير استعمال بصره فيتردى في هاوية يهلك فيها وعيناه سليمتان تلمعان في وجهه – يقع ذلك لطيش أو إهمال أو غفلة أو لجاج وعناد. وقد يقوم من العقل والحس ألف دليل على مضرة شيء، ويعلم ذلك الباغي في رأيه من أهل الشر، ثم يخالف تلك الدلائل الظاهرة ويقتحم المكروه لقضاء شهوة اللجاج أو نحوها ولكن وقوع هذه الأمثال لا ينقص من قدر الحسن أو المقل فيها خلق لأجله – كذلك الرسل عليهم السلام أعلام هدايا نصها الله على سبيل النجاة فمن الناس من اهتدى بها فانتهى إلى غايات السعادة، ومنهم من غلط في فهمها أو انحرف عن هديها فانكب في مهاوي الشقاء – فالدين هاد، والنقص يعرض لمن دعوا إلى الاهتداء به، ولا يطعن نقصهم في كماله واشتداد حاجتهم إليه (٢ : ٢٦ يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً، وما يضل به إلا الفاسقين).

ألا إن الدين مستقر السكينة، ولجأ الطمأنينة، به يرضي كل يما قسم له،

---

(1) التقاليد هي العادات الموروثة قاله المؤلف في الدرس

وبه يدأب عامل حتى يبلغ الغاية من عمله، وبه تخضع النفوس إلى أحكام السن العامة في الكون، وبه ينظر الإنسان إلى من فوقه في العلم والفضيلة، وإلى من دونه في المال والجاه، اتباعا لما وردت به الأوامر الإلهية.

الدين أشبه بالبواعث الفطرية الإلهامية منه بالدواعى الاختيارية، الدين قوة من أعظم قوى البشر، وإنما قد يعرض عليها من العلل ما يعرض لغيرها من القوى، وكل ما وجه إلى الدين من مثل الاعتراض الذي نحن بصدده فتبعته في أعناق القائمين عليه، الناصبين أنفسهم منصب الدعوة إليه، أو المعروفين بأنهم حفظته ورعاة أحكامه، وما عليهم في إبلاغ القلوب بغيتها منه إلا أن يهتدوا به، ويرجعوا إلى أصوله الطاهرة الأولى، ويضعوا عنه أوزار البدع، فترجع إليه قوته و تظهر للأعمى حكمته.

ربما يقول قائل : إن هذه المقابلة بين العقل والدين تميل إلى رأي القائلين بإهمال العقل بالمرة في قضايا الدين. وبأن أساسه هو التسليم المحض، وقطع الطريق على أشعة البصيرة أن تنفذ إلى فهم ما أودعه من معارف وأحكام : فنقول: لو كان الأمر كما عساه أن يقال لما كان الدين علماً يهتدى به، وإنما الذي سبق تقريره: هو أن العقل

وحده لا يستقل بالوصول إلى ما فيه سعادة الأمم بدون مرشد إلهى، كما لا يستقل الحيوان في إدراك جميع المحسوسات بحاسة البصر وحدها، بل لابد معها من السمع لإدراك المسموعات مثلا[1] كذلك الدين هو حاسة عامة لكشف ما يشتبه على العقل من وسائل السعادات، والعقل هو صاحب السلطان في معرفة تلك الحاسة وتصريفها فيما منحت لأجله والإذعان لما

([1]) قال المؤلف في الدرس : هذه القضية مهملة تصدق بالبعض فلا يناقضها أن بعض الديدان له حاسة واحدة يدرك بها كل ما تحتاج إلى إدراكه

تكشف له من معتقدات وحدود أعمال.

كيف ينكر على العقل حقه في ذلك وهو الذي ينظر في أدلتها ليصل منها إلى معرفتها، وأنها آتية من قبل الله – وإنما على العقل بعد التصديق برسالة في أن يصدق بجميع ما جاء به، وإن لم يستطع الوصول إلى كنه بعضه والنفوذ إلى حقيقته، ولا يقضى عليه ذلك بقبول ما هو من باب المحال المؤدي إلى مثل الجمع بين النقيضين، أو بين الضدين في موضوع واحد في آن واحد، فإن ذلك ما تتنزه النبوات عن أن تأتي به. فإن جاء ما يوهم ظاهر ذلك في شيء من الوارد فيها وجب على العقل أن يعتقد أن الظاهر غير مراد، وله الخيار بعد ذلك في التأويل مسترشداً ببقية ما جاء على لسان

من ورد المتشابه في كلامه، وفي التفويض إلى الله في عليه. وفي سلفنا من الناجين من أخذ بالأول ومنهم من أخذ بالثاني.

رسالة محمد صلى الله عليه وسلم

ليس من غرضنا في هذه الوريقات أن نلم بتاريخ الأمم عامة وتاريخ العرب خاصة في زمن البعثة المحمدية، لنبين كيف كانت حاجه سكان الأرض ماسة إلى قارعة تهز عرش الملوك وتزلزل قواعد سلطانهم الغاشم، وتخفض من أبصارهم المعقودة بعنان السماء [1] إلى من دونهم من رعاياهم الضعفاء، وإلى نار تنقض من سماء الحق على أدم الأنفس البشرية لتأكل ما اعشوشبت به من الأباطيل القاتلة للعقول، وصيحة فصحى تزعج الغافلين، وترجع بألباب الذاهلين، وتنبه المرءوسين إلى أنهم ليسوا بأبعد عن البشرية من الرؤساء الظالمين، والهداة الضالين والقادة الغارين، وبالجملة تثوب بهم إلى رشد يقيم الإنسان على الطريق التي سنها الله له (إنا هديناه السبيل [2]) ليبلغ بسلوكها كماله، ويصل على نهجها إلى ما أعد في الدارين له، ولكننا نستعير من التاريخ كلمة يفهمها من نظر فيما اتفق عليه مؤرخو ذلك العهد نظر إمعان وإنصاف.

كانت دولتنا العالم[3] دولة الفرس في الشرق ودولة الرومان في الغرب – في تنازع وتجالد مستمر : دماء بين العالمين مسفوكة، و قوى منهوكة، وأموال هالكة، وظل من الإحن حالكة، ومع ذلك فقد كان الزهو والترف والإسراف والفخفخة والتفنن في الملاذ بالغة حد مالا يوصف في قصور السلاطين والأمراء والقواد ورؤساء الأديان من كل أمة. وكان شره هذه الطبقة من الأمم لا يقف

---

(1) ضرب من التمثيل كما هو ظاهر وصرح به المؤلف في الدرس وكذلك قوله "وإلى نار" وقس على ذلك

(2) قال المؤلف في الدرس: المراد بالسبيل والطريق، فطرة الله التي فطر الناس عليها.

(3) بيان للكلمة التي استعارها من التاريخ قال في الدرس : وفاتني وقت الكتابة ذكر دولة الصين انها كانت أيضا ممزقة بالحروب الأهلية ومع التركمان وسنذكرها في طبعة ثانية.

عند حد، فزادوا في الضرائب و بالغوا في فرض الإتاوات

حتى أثقلوا ظهور الرعية بمطالبهم، وأتوا على ما في أيديها من ثمرات أعمالها. و انحضر سلطان القوى في اختطاف ما بيد. الضعيف وفكر العاقل، في الاحتيال لسلب الغافل، وتبع ذلك أن استولى على تلك الشعوب من ضروب الفقر والذل والاستكانة والخوف والاضطراب لفقد الأمن على الأرواح والأموال.

غمرت مشيئة الرؤساء إرادة من دونهم فعاد هؤلاء كأشباح اللاعب يديرها من وراء حجاب، ويطنها الناظر إليها من ذوى الألباب، ففقد بذلك الاستقلال الشخصي، وظن أفراد الرعايا أنهم لم يخلقوا إلا لخدمة ساداتهم، وتوفير لذاتهم، كما هو الشأن في العجماوات مع من يقتنيها، ضلت السادات في عقائدها وأهوائها، وغلبتها على الحق والعدل شهواتها، ولكن بقي لها من قوة الفكر أردأ بقاياها، فلم يفارقها الحذر من أن بصيص النور الإلهي الذي يخالط الفطر الإنسانية قد يفتق الغلف التي أحاطت بالقلوب، ويمزق الحجب التي أسدلت على العقول، فتهتدى العامة إلى السبيل، ويثور الجم الغفير على العدد القليل، ولذلك لم يغفل الملوك والرؤساء أن ينشئوا سحبا من الأوهام، ويهيئوا كسفا من الأباطيل والخرافات، ليقذفوا بها في عقول العامة، فيغلظ الحجاب ويعظم الرين، ويختنق بذلك نور الفطرة، ويتم لهم ما يريدون من المغلوبين لهم، وصرح الدين بلسان رؤسائه أنه عدو العقل، وعدو كل ما يثمره النظر، إلا ما كان تفسيراً لكتاب مقدس، وكان لهم في المشارب الوثنية ينابيع لا تنضب، ومدد لا ينفد.

هذه حالة الأقوام كانت في معارفهم، وذلك كان شأنهم في معايشهم، عبيد أذلاء، حيارى في جهالة عمياء، اللهم إلا بعض شوارد من بقايا الحكمة الماضية، والشرائع السابقة، آوت إلى بعض الأذهان، ومعها مقت الحاضر، ونقص العلم

بالغابر.

ثارت الشبهات على أصول العقائد وفروعها بما انقلب من الوضع وانعكس من الطبع، فكان يرى الدنس في مظنة الطهارة والشره حيث تنتظر القناعة، والدعارة حيث ترجى السلامة والسلام، مع قصور النظر عن معرفة السبب، وانصرافه لأول وهلة إلى أن مصدر كل ذلك هو الدين، فاستولى الاضطراب على المدارك، وذهب بالناس مذهب الفوضى في العقل والشريعة معاً، وظهرت مذاهب الإباحيين والدهريين في شعوب متعددة، وكان ذلك ويلا عليها فوق ما رزئت به من سائر الخطوب.

وكانت الأمة العربية قبائل متخالفة في النزعات، خاضعة للشهوات، فخر كل قبيلة في قتال أختها، وسفك دماء أبطالها، وسبى نسائها، وسلب أموالها، تسوقها المطامع، إلى المعامع، ويزين لها السيئات، فساد الاعتقادات، وقد بلغ العرب من سخافة العقل حدا صنعوا فيه أصنامهم من الحلوى ثم عبدوها. فلما جاعوا أكلوها، وبلغوا من تضعضع الأخلاق وهنا قتلوا فيه بناتهم تخلصاً من عار حياتهن أو تنصلا من نفقات معيشتهن، وبلغ الفحش منهم مبلغاً لم يعد معه للعفاف قيمة، و بالجملة فكانت ربط[1] النظام الاجتماعي قد تراخت عقدها في كل أمة، وانفصمت عراها عند كل طائفة[2].

أفلم يكن من رحمة الله بأولئك الأقوام أن يؤدبهم برجل منهم يوحي إليه رسالته، ويمنحه عنايته، ويمده من القوة بما يتمكن معه من كشف تلك الغمم،

---

(1) الربط بضمتين : جمع رباط وهو ما يربط به.

(2) يستدرك هنا أن العرب كانوا يفضلون جميع الأمم بصفات وأخلاق كانت سبب ظهور المصلح الأعظم منهم كاستقلال الفكر، وقوة الإرادة، والشجاعة والنجدة، والجود والايثار، وحماية الجار إذ لم يستعبدوا لرؤساء دينيين ولاسياسيين. وما ذكر من العيوب فيهم كواد البنات لم يكن كله فاشياً في جميع بلادهم وقبائلهم، وكان زنا الحرائر نادراً ويعد من أنكر المنكرات

التي أظلت رءوس جميع الأمم ؟ نعم كان ذلك وله الأمر من قبل ومن بعد.

في الليلة الثانية عشرة[1] من ربيع الأول عام الفيل "٢٠ أبريل سنة ٥٧١ من ميلاد المسيح عليه السلام" ولد مُحَمَّد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي بمكة. ولد يتيما، توفي والده قبل أن يولد، ولم يترك له من المال إلا خمس جمال و بعض نعاج[2] و جارية ويروى أقل من ذلك. وفي السنة السادسة من عمره فقد والدته أيضاً فاحتضنه جده عبد المطلب. وبعد سنتين من كفالته توفي جده فكفله من بعده عمه أبو طالب وكان شهما كريماً غير أنه كان من الفقر بحيث لا يملك كفاف أهله. وكان ﷺ من بني عمه وصبية قومه كأحدهم على ما به من يتم فقد فيه الأبوين معا، وفقر لم يسلم منه الكافل والمكفول، ولم يقم على تربيته مهذب، ولم يعن بتثقيفه مؤدب، بين أتراب من نبت الجاهلية، وعشراء من حلفاء الوثنية، و أولياء من عبدة الأوهام، وأقرباء من حفدة الأصنام، غير أنه مع ذلك كان ينمو ويتكامل بدنا و عقلا، وفضيلة وأدبا، حتى عرف بين أهل مكة وهو في ريعان شبابه بالأمين : أدب إلهي لم تجر العادة بأن تزين به نفوس الأيتام من الفقراء، خصوصا مع فقر القوام، فاكتهل صلى الله عليه و سلم كاملا والقوم ناقصون، رفيعا والقوم منحطون، وموحداً وهم وثنيون، سلما وهم شاغبون[3] صحيح الاعتقاد وهم واهمون مطبوعا على الخير و هم به جاهلون، وعن سبيله عادلون.

من السنن المعروفة أن يتيما فقيراً أمياً مثله تنطبع نفسه بما تراه من أول

---

(١) هذا هو المشهور الذي عليه الناس في تقاويمهم واحتفالاتهم بذكرى المولد النبوي وهو أحد الأقوال والأصح عند المحدثين أنه ولد في الليلة التاسعة منه

(٢) قيل خمس، وقيل تسع.

(٣) استشهد المؤلف لهذا في الدرس بقصة اختلاف القبائل فيه وضع الحجر الأسود يوم بناء الكعبة حتى كادوا يتقاتلون، واتفاقهم على تحكيمه لأمانته والتزامه الحق وما كان من إصلاحه بينهم بما أرضاهم كلهم.

نشأته إلى زمن كهولته، ويتأثر عقله بما يسمعه من يخالطه ولا سيما إن كان من ذوي قرابته، و أهل عصبته، ولا كتاب يرشده ولا أستاذ ينبهه، ولا عضد إذا عزم يؤيده، فلو جرى الأمر فيه على جارى السنن لنشأ على عقائدهم، وأخذ بمذاهبهم، إلى أن يبلغ مبلغ الرجال، ويكون للفكر والنظر مجال، فيرجع إلى مخالفتهم، إذا قام له الدليل على خلاف ضلالاتهم، كما فعل القليل ممن كانوا على عهده [1] ولكن الأمر لم يجر على سنته، بل بغضت إليه الوثنية من مبدأ عمره، فعاجلته طهارة العقيدة، كما بادره حسن الخليقة، وما جاء في الكتاب من قوله : (ووجدك ضالا فهدى) لا يفهم منه أنه كان على وثنية قبل الاهتداء إلى التوحيد، أو على غير السبيل القويم، قبل الخلق العظيم، حاش لله إن ذلك هو الإفك المبين، وإنما هي الحيرة تلم بقلوب أهل الإخلاص، فيما يرجون للناس من الخلاص، وطلب السبيل إلى ماهدوا إليه من إنقاذ الهالكين، وإرشاد الضالين. وقد هدى الله نبيه إلى ما كانت تتلمسه بصيرته باصطفائه لرسالته واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته.

وجد شيئاً من المال يسد حاجته " وقد كان له في الاستزادة منه ما يرفه معيشته" بما عمل لخديجة ﵂ في تجارتها، و بما اختارته بعد ذلك زوجا لها، وكان فيما يجتنيه من ثمرة عمله غناء له، وعون على بلوغه ما كان عليه أعاظم قومه، لكنه لم ترقه الدنيا. ولم تغره زخارفها، ولم يسلك ما كان يسلكه مثله في الوصول إلى ما ترغبه الأنفس من نعيمها، بل كلما تقدمت به السن زادت فيه الرغبة عما كان عليه الكافة، و نما فيه حب الانفراد و الانقطاع إلى الفكر والمراقبة. والتحنث بمناجاة الله تعالى، والتوسل إليه في طلب المخرج من همه الأعظم في تخليص قومه، ونجاة العالم من الشر الذي تولاه – إلى أن انفتق له الحجاب عن

---

(1) كأمية بن أبي الصلت وزيد بن عمرو بن نفيل

عالم كان يحثه إليه الإلهام الإلهى[1]، وتجلى عليه النور القدسي، وهبط عليه الوحى من المقام العلى. في تفصيل ليس هذا موضعه.

لم يكن من آبائه ملك فيطالب بما سلب من ملكه. وكانت نفوس قومه في انصراف تام عن طلب مناصب السلطان، و في قناعة بما وجدوه من شرف النسبة إلى المكان، دل عليهما ما فعل جده عبد المطلب عند زحف أبرهة الحبشي على ديارهم، جاء الحبشي لينتقم من العرب بهدم معبدهم العام، وبيتهم الحرام، ومنتجع حجيجهم، ومستوى العلية من آلهتهم، ومنتهي حجة القرشيين في مفاخرتهم لبني قومهم. وتقدم بعض جنده فاستاق عدداً من الإبل فيها لعبد المطلب مائنا بعير، وخرج عبد المطلب في بعض قريش لمقابلة الملك فاستدناه وسأله حاجته، فقال : هي أن ترد إلى مائتي بعير أصبتها لي، فلامه الملك على المطلب الحقير، وقت الخطب الخطير، فأجابه : أنا رب الإبل، وأما البيت فله رب يحميه.

هذا غاية ما ينتهي إليه الاستسلام – وعبد المطلب في مكانه من الرياسة على قريش – فأين من تلك المكانة مُحَمَّد (ص) في حاله من الفقر، ومقامه في الوسط من طبقات أهله، حتى ينتجع ملكا أو يطلب سلطاناً ؟ لا مال لا جاه، لا جند لا أعوان، لا سليقة في الشعر، لا براعة في الكتاب، لا شهرة في الخطاب، لاشيء كان. عنده مما يكسب المكانة في نفوس العامة أو برقى به إلى مقام ما بين الخاصة.

---

(1) أي من غير شعور منه. ويظن الباحثون في سيرته (ص) من غير المسلمين كما يظن كثير من المسلمين أنه (ص) كان يستشرف للنبوة ويرجوها ولا سيما في عهد تحثه في غار حراء. ولكن الله تعالى يقول: (وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك) أي لكن ألقي إليك رحمة من ربك لم تكن ترجوها، ويؤيد هذا المعنى خوفه (ص) على نفسه عندما فجأه ملك الوحي في حراء كما ثبت في حديث الصحيحين.

ما هذا الذي رفع نفسه فوق النفوس ؟ ما الذي أعلى رأسه على الرءوس، ما الذي سما بهمته على الهمم. حتى انتدب لإرشاد الأمم وكفالته لهم كشف الغمم. بل وإحياء الرمم ؟

ما كان ذلك إلا ما ألقى الله في روعه من حاجة العالم إلى مقوم لما زاغ من عقائدهم، ومصلح لما فسد من أخلاقهم وعوائدهم، ما كان ذلك إلا وجدانه ريح العناية الإلهية تنصره في عمله، و تمده في الانتهاء إلى أمله، قبل بلوغ أجله. ما هو إلا الوحي الإلهي يسعى نوره بين يديه يضيء له السبيل، ويكفيه مؤنة الدليل، ما هو إلا الوحي السماوى، قام لديه مقام القائد والجندي، أرأيت كيف نهض وحيداً فريداً يدعو الناس كافة إلى التوحيد، والاعتقاد بالعلي المجيد. والكل مابين و ثنية مفرقة، ودهرية وزندقة ؟

نادي في الوثنيين بترك أو ثانهم ونبذ معبوداتهم – وفي المشبهين المنغمسين في الخلط بين اللاهوت الأقدس و بين الجسمانيات بالتطهر من تشبيههم – وفي التانوية بإفراد إله واحد بالتصرف في الأكوان ورد كل شيء في الوجود إليه – أهاب بالطبيعيين ليمدوا بصائرهم إلى ما وراء حجاب الطبيعة، فيتنوروا سر الوجود الذي قامت به. صاح بذوى الزعامة ليهبطوا إلى مصاف العامة، في الاستكانة إلى سلطان معبود واحد، هو فاطر السموات والأرض، والقابض على أرواحهم في هياكل أجسادهم.

تناول المنتحلين منهم لمرتبة التوسط بين العباد وبين ربهم الأعلى،فبين لهم بالدليل، وكشف لهم بنور الوحي أن نسبة أكبرهم إلى الله كنسبة أصغر المعتقدين بهم، وطالبهم بالنزول عما انتحلوه لأنفسهم من المكانات الربانية، إلى أدنى سلم من العبودية، والاشتراك مع كل ذى نفس إنسانية، في الاستعانة برب واحد يستوي جميع الخلق في النسبة إليه، لا يتفاوتون إلا فيما فضل به بعضهم على

بعض من علم أو فضيلة.

وخز بوعظه عبيد العادات وإسراء التقاليد، ليعتقوا أرواحهم مما استعبدوا له، ويحلوا أغلالهم التي أخذت بأيديهم عن العمل. واقتطعتهم دون الأمل – مال على قراء الكتب السماوية، والقائمين على ما أودعته من الشرائع الإلهية، فبكت الواقفين عند حروفها بغباوتهم، وشدد النكير على المجرفين لها، الصنارفين لألفاظها إلى غير ما قصد من وحيها، اتباعا لشهواتهم، ودعاهم إلى فهمها، والتحقق بسر علمها ؛ حتى يكونوا على نور من ربهم.

ولفت كل إنسان إلى ما أودع فيه من المواهب الإلهية، ودعا الناس أجمعين ذكوراً وإناثاً عامة وسادات إلى عرفان أنفسهم، وأنهم من نوع خصه الله بالعقل، وميزه بالفكر، وشرفه بهما، وبحرية الإرادة فيما يرشده إليه عقله وفكره، وأن الله عرض عليهم جميع ما بين أيديهم من الأكوان و سلطهم على فهمها والانتفاع بها، بدون شرط ولا قيد إلا الاعتدال والوقوف عند حدود الشريعة العادلة، والفضيلة الكاملة. وأقدرهم بذلك على أن يصلوا إلى معرفة خالقهم بعقولهم وأفكارهم بدون واسطة أحد، إلا من خصهم الله بوحيه، وقد وكل إليهم معرفتهم بالدليل. كما كان الشأن في معرفتهم لمبدع الكائنات أجمع. والحاجة إلى أولئك المصطفين إنما هي في معرفة الصفات التي أذن الله أن تعلم منه، وليست في الاعتقاد بوجوده. وقرر أن لا سلطان لأحد من البشر على آخر منه، إلا مارسمته الشريعة وفرضه العدل. ثم الإنسان بعد ذلك يذهب بارادته إلى ما سخرت له بمقتضى الفطرة.

دعا الإنسان إلى معرفة أنه جسم و روح، وأنه بذلك من عالمين متخالفين، وإن كانا ممتزجين، وأنه مطالب بخدمتهما جميعاً وإيفاء كل منهما ما قررت له الحكمة الإلهية من الحق.

دعا الناس كافة إلى الاستعداد في هذه الحياة لما سيلاقون في الحياة الأخرى، وبين لهم أن خير زاد يتزوده العامل هو الإخلاص لله في العبادة والإخلاص للعباد في العدل والنصيحة والإرشاد.

قام بهذه الدعوة العظمى وحده، ولا حول له ولا قوة، كل هذا كان منه والناس أحباء ما ألفوا، وإن كان خسران الدنيا وحرمان الآخرة، أعداء ما جهلوا، وإن كان رغد العيش وعزة السيادة ومنتهى السعادة، كل هذا والقوم حواليه أعداء أنفسهم، وعبيد شهواتهم، لا يفقهون دعوته، ولا يعقلون رسالته، عقدت أهداب بصائر العامة منهم بأهواء الخاصة، وحجبت عقول الخاصة بغرور العزة عن النظر في دعوى فقير أمي مثله، لا يرون فيه ما يرفعه إلى نصيحتهم. والتطاول إلى مقاماتهم الرفيعة باللوم والتعنيف.

لكنه في فقره وضعفه كان يقارعهم بالحجة، ويناضلهم بالدليل ويأخذهم بالنصيحة، ويزعجهم بالزجر ؛ وينبههم للعبر، ويحوطهم مع ذلك بالموعظة الحسنة، كأنما هو سلطان قاهر في حكمه عادل في أمره ونهيه، أو أب حكيم في تربية أبنائه، شديد الحرص على مصالحهم، رءوف بهم في شدته رحيم في سلطته.

ما هذه القوة في ذلك الضعف ؟ ما هذا السلطان في مظنة العجز؛ ما هذا العلم في تلك الأمية ؟ ما هذا الرشاد في غمرات الجاهلية، إن هو إلا خطاب الله القادر على كل شيء، الذي وسع كل شيء رحمة وعلماً ذلك أمر الله الصادع : يقرع الآذان، ويشق الحجب ؛ ويمزق الغلف، وينفذ إلى القلوب على لسان من اختاره لينطق به، واختصه بذلك وهو أضعف قومه، ليقيم من هذا الاختصاص برهاناً عليه بعيداً عن الظنة : بريئاً من التهمة، لإتيانه على غير المعتاد بين خلقه.

أي برهان على النبوة أعظم من هذا ؟ أمي قام يدعو الكاتبين إلى فهم ما

يكتبون وما يقرءون، بعيد عن مدارس العلم صاح بالعلماء ليمحصوا ما كانوا يعلمون، في ناحية عن ينابيع العرفان جاء يرشد العرفاء، ناشيء بين الواهمين هب لتقويم عوج الحكماء، غريب في أقرب الشعوب إلى سذاجة الطبيعة، وأبعدها عن فهم نظام الخليقة، والنظر في سننه البديعة، أخذ يقرر للعالم أجمع أصول الشريعة، ويخط للسعادة طرقا لن يهلك سالكها، ولن يخلص تاركها.

ما هذا الخطاب المفحم ؟ ما ذلك الدليل الملجم ؟ أأقول ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم ؟ لا. لا أقول ذلك، ولكن أقول كما أمره الله أن يصف نفسه : إن هو إلا بشر مثلكم يوحى إليه، نبى صدق الأنبياء، ولكن لم يأت في الإقناع برسالته بما يلهي الأبصار، أو يحير الحواس، أو يدهش المشاعر. ولكن طالب كل قوة بالعمل فما أعدت له واختص العقل بالخطاب، وحاكم إليه الخطأ والصواب، وجعل في قوة الكلام وسلطان البلاغة وصحة الدليل مبلغ الحجة. وآية الحق الذي (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)

القرآن

جاءنا الخبر المتواتر الذي لا تطرق إليه الريبة أن النبي (ص) كان في نشأته وأميته على الحال التي ذكرنا، وتواترت أخبار الأمم كافة على أنه جاء بكتاب قال : إنه أنزل عليه , وأن ذلك الكتاب هو القرآن المكتوب في المصاحف المحفوظ في صدور من عنى بحفظه من المسلمين إلى اليوم..

كتاب حوى من أخبار الأمم الماضية ما فيه معتبر للأجيال الحاضرة والمستقبلة : نقب على الصحيح منها، وغادر الأباطيل التي ألحقتها الأوهام بها، ونبه على وجوه العبرة فيها.

حكم عن الأنبياء ما شاء الله أن يقص علينا من سيرهم، وما كان بينهم وبين أممهم، و بر أهم ما رماهم به أهل دينهم المعتقدين برسالاتهم.

آخذ العلماء من الملل المختلفة على ما أفسدوا من عقائدهم، وما خلطوا في أحكامهم، وما حرفوا بالتأويل في كتبهم. وشرع للناس أحكاما تنطبق على مصالحهم، وظهرت الفائدة في العمل بها والمحافظة عليها، وقام بها العدل وانتظم بها شمل الجماعة ما كانت عند حد ما قرره ثم عظمت المضرة في إهمالها والانحراف عنها، أو البعد بها عن الروح الذي أودعته. ففاقت بذلك جميع الشرائع الوضعية، كما يتبين للناظر في شرائع الأمم.

ثم جاء بعد ذلك [1] بحكم ومواعظ و آداب، تخشع لها القلوب وتهش

---

(1) هذه البعدية نوعية لا زمانية أو هي كما قال الشاعر :

قل لمن مات ثم مات أبوه ثم من بعده ذاك قد مات جده

لاستقبالها العقول، وتنصرف وراءها الهم انصرافها في السبيل الأم [1].

نزل القرآن في عصر اتفق الرواة وتواترت الأخبار على أنه أرقى الأعصار عند العرب. وأغزرها مادة في الفصاحة، وأنه الممتاز بين جميع ما تقدمه بوفرة رجال البلاغة، وفرسان الخطاب، وأنفس ما كانت العرب تتنافس فيه من ثمار العقل ونتائج الفطنة والذكاء : هو الغلب في القول، والسبق إلى إصابة مكان الوجدان من القلوب، ومقر الإذعان من العقول، وتفانيهم في المفاخرة بذلك، مما لا يحتاج إلى الإطالة في بيانه.

تواتر الخبر كذلك بما كان منهم من الحرص على معارضة التي صلى الله عليه وسلم، والتماسهم الوسائل قريبها وبعيدها لإبطال دعواه، وتكذيبه في الإخبار عن الله، وإتيانهم في ذلك على مبلغ استطاعتهم، وكان فيهم الملوك الذين تحملهم عزة الملك على معاندته، والأمراء الذين يدعوهم السلطان إلى مناوأته، والخطباء والشعراء والكتاب الذين يشمخون بأنوفهم عن متابعته، وقد اشتد جميع أولئك في مقاومته، وانهالوا بقواهم عليه استكباراً عن الخضوع له، و تمسكا بما كانوا عليه من أديان آبائهم، وحمية لعقائدهم وعقائد أسلافهم، وهو مع ذلك يخطىء آراءهم، ويسفه أحلامهم، و يحتقر أصنامهم، ويدعوهم إلى مالا تعهده أيامهم ولم تخفق لمثله أعلامهم، ولا حجة له بين يدي ذلك كله إلا تحديهم بالإتيان بمثل أقصر سورة من ذلك الكتاب أو بعشر سور من مثله [2]، وكان في استطاعتهم أن يجمعوا إليه من العلماء والفصحاء والبلغاء ما شاءوا ليأتوا بشيء من مثل ما أتى به ليبطلوا الحجة، ويفحموا صاحب الدعوة.

---

(1) الأمم بفتح الهمزة والميم الأولى : القريب

(2) كان التحدي بعشر سور مثله رداً على الذين قالوا "افتراه" ولذلك وصفها بقوله (مفتريات) وقد بينت حكمة هذا العدد في تفسير الآية من سورة هود.

جاءنا الخبر المتواتر أنه مع طول زمن التحدي، ولحاج القوم في التعدي، أصيبوا بالعجز، ورجعوا بالخيبة، و حقت للكتاب العزيز الكلمة العليا على كل كلام، وقضى حكمه العلى على جميع الأحكام. أليس في ظهور مثل هذا الكتاب على لسان أي أعظم معجزة ؛ وأدل برهان على أنه ليس من صنع البشر، وإنما هو النور المنبعث عن شمس العلم الإلهى. والحكم الصادر عن المقام الرباني على لسان الرسول الأمي صلوات الله عليه ؟.

هذا، وقد جاء في الكتاب من أخبار الغيب ما صدقته حوادث الكون، كالخبر في قوله (٣٠ : ٢ غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين) وكالوعد الصريح في قوله (٢٤ : ٥٥ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم) الآية.وقد تحقق جميع ذلك، وفي القرآن كثير من مثل هذا يحيط به من يتلوه حق تلاوته.

ومن الكلام على الغيب فيه: ما جاء في تحدي العرب به، واكتفائه في الرجوع عن دعواه بأن يأتوا بسورة من مثله، مع سعة البلاد العربية ووفرة سكانها وتباعد أطرافها ؛ وانتشار دعوته على لسان الوافدين إلى مكة من جميع أرجائها، ومع أنه لم يسبق له ﷺ السياحة في نواحيها والتعرف برجالها وقصور العلم البشرى عادة عن الإحاطة بما أودع في قوى أمة عظيمة، كالأمة العربية، فهذا القضاء الحاتم منه بأنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بشيء من مثل ما تحداهم به ليس قضاء بشريا، ومن الصعب ؛ بل من المتعذر أن يصدر عن عاقل التزام الذي التزمه ؛ وشرط كالذي شرطه على نفسه، لغلبة الظن عند من له شيء من

العقل أن الأرض لا تخلو من صاحب قوة مثل قوته[1] وإنما ذلك هو الله المتكلم، والعلم الخبير هو الناطق على لسانه، وقد أحاط علمه بقصور جميع القوى عن تناول ما استنهضهم له، وبلوغ ما حثهم عليه.

يقول واهم : إن العجز حجة على من عجز. فإن العجز هو حجة

---

(1) يشير إلى قوله تعالى (وإن كنتم فى ريب ما نزلنا على عبدنا فائتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فان لم تفعلوا – ولن تفعلوا – فاتقوا النار) الخ. فالإخبار بالغيب فيه قوله – "ولن تفعلوا" وكان هذا بعد التصريح بعجز الإنس والجن عن الإتيان بمثله

قد يقال : إن بعض دعاة الضلال في بلاد الفرس والهند قد تحدوا مثل هذا التحدي في بعض ما كتبوه لإثبات ما ادعوه من الوحي إليهم أو الألوهية لأنفسهم، ولم نعلم أن أحداً تصدى لمعارضتهم.ونقول في الجواب على تقدير تسليم الدعوي : إن أولئك لم يكونوا أولى شأن يبالي بدعوتهم وتحده هم، بل من الموسوسين (كالباب والقديانى مسيح الهند الدجال) وكان جل ما جاءوا به من ذلك أشبه باللغو منه بكلام العقلاء أو النبيين، وما كان لعاقل أن يعارض المجانين، ولا لبليغ أن يحاكي هذيان المحمومين والمصروعين، ولا يزال يظهر أمثالهم في تلك البلاد وغيرها، ولا يبالي هم أحد، ولكن رزق بعضهم الحظوة في بلاد أعجمية ؟ أتوا فيها بسخافات جنوا بها على العربية، وما ادعاه بعضهم من إنجاز بعض ما كتبه فهو ليس كتحدي الأنبياء، بل كمبالغة بعض الأدباء والشعراء، كالشيخ أحمد فارس الذي قال في مقدمة كتابه "الساق على الساق" غلوا في الفخر به

عهد إلى ولدي أن يتحديا أسلوبه وبدفتيه يطيفا

على أنه يوجد أمثال لتلك الكتب السخيفة، ولهذا الكتب اللطيفة ولو قيل لهم أو لبعض أشياعم : إنها مثلها أو أمثل منها في بابها لأنكروا ومن ذا الذي يبالي بهم و بإقناعهم، وليس شأن القرآن مع العرب، ثم مع سائر الأمم كذلك، وإعجازه من وجوه كثيرة في نفسه، وفي كون من جاء به أمياً بلغ الأربعين، و من المحال أن يبتكر أحد من البشر في هذه السن علماً لم يستعد له، ولم يزاوله. وكل من ذكرنا كانوا متعلمين وهو (ص) قد جاء بأقصي الغايات من أعلى العلوم،لم يسبق له اكتساب شيء ما من الاستعداد له لا علوم العقائد ولا الشرائع ولا الحكمة العملية ولا العلمية، ولا التاريخ وفلسفته... ولا كان ممتازاً قبله بالبلاغة في الشعر والخطابة، ولا الجدل، ثم جاء هذا الكتاب بالغاية القصوى في هذه العلوم، و تلك معجزات كثيرة غير معجزة بلاغته وأسلوبه البديع وغير ما فيه من أنباء الغيب، وكانت الدواعي لمعارضته قوية، فإنه زلزل سلطانهم الديني والدنيوى، حتى فوضه من أساسه، ولم يكن لهؤلاء الأدعياء المتأخرين مثل هذا السلطان والتأثير العظيم، على أن أدهاهم في الدعاية – وهم البهائية – يخفون كتابهم الذي سموه الأقدس بدلا من التحدي به، ولو أظهروه لافتضحوا به.

الإفحام وإلزام الخصم : وقد يلتزم الخصم بعض المسلمات عنده فيفحم، و يعجز عن الجواب فتلزمه الحجة. لكن ليس ذلك بملزم لغيره، فمن الممكن أن لا يسلم غيره بما سلمه، فلا يفحمه الدليل ؛ بل يحد إلى إبطاله أقرب سبيل.

وهو وهم يضمحل بما قدمناه من البيان، إذ لا يوجد من المشابهة بين إعجاز القرآن وإقحام الدليل إلا أنه يوجد عن كل منهما عجز : و شتان بين العجزين , و بعد ما بين وجهتي الاستدلال فيهما. فإن إعجاز القرآن برهن على أمر واقعي ؛ وهو تقاصر القوى البشرية دون مكانته من البلاغة. و قلنا : "القوى البشرية" لأنه جاء بلسان عربي : وقد عرف الكتاب عند جميع العرب في عهد النبوة : وكان حال العصر من البلاغة كما ذكرنا، وحال القوم في العناد كما بينا. ومع ذلك لم يمكن للعرب أن يعارضوه بشيء من مبلغ عقولهم. فلا يعقل أن فارسيا أو هنديا أو رومانيا يبلغ من قوة البلاغة في العربية أن يأتي بما عجز عنه العرب أنفسهم، وتقاصر القوى جميعها عن ذلك، مع التماثل بين النبي وبينهم في النشأة والتربية،.وامتياز الكثير منهم بالعلم و الدراسة : دليل قاطع على أن الكلام

لبس مما أعتيد صدوره عن البشر فهو اختصاص من الله سبحانه لمن جاء على لسانه، ثم ما ورد في القرآن من تسجيل العجز عليهم، والتعرض للاصطدام بجميع ما أوتوا من قوة، مما يدل على الثقة من أمره، على ما سبق تعداده من الأمور التي لا يمكن معها لعاقل ان يقف ذلك الموقف مع طول الزمن. وانفساح الأجل، كل ذلك يدل على أن الناطق هو عالم الغيب والشهادة، لا رجل يعظ وينصح على العادة.

فنبت بهذه المعجزة العظمى، وقام الدليل بهذا الكتاب الباق الذي لا يعرض عليه التغيير، ولا يتناوله التبديل. أن نبينا مُحَمَّداً (ص) رسول الله إلى خلقه،

فيجب التصديق برسالته، والاعتقاد بجميع ما ورد في الكتاب المنزل عليه، والأخذ بكل ما ثبت عنه من هدى وسنة متبعة. وقد جاء في الكتاب أنه خاتم الأنبياء. فوجب علينا الإيمان بذلك كذلك.

بقي علينا أن نشير إلى وظيفة الدين الإسلامي، و ما دعا إليه على وجه الإجمال، وكيف انتشرت دعوته بالسرعة المعروفة. والسر في كون النبي (ص) حاتم المرسلين، صلوات الله عليه وعليهم أجمعين.

الدين الإسلامي أو الإسلام

هو الدين الذي جاء به مُحَمَّد ﷺ وعقله من وعاه عنه من صحابته ومن عاصرهم. وجرى العمل عليه حيناً من الزمن بينهم، بلا خلاف ولا اعتساف في التأويل ولا ميل مع الشيع، وإني مجمله في هذا الباب مقتديا بالكتاب المجيد في التفويض لذوي البصائر أن يفصلوه، وما سندى فيما أقول : إلا الكتاب والسنة القوية وهدي الراشدين.

جاء الدين الإسلامي بتوحيد الله تعالى في ذاته وأفعاله و تنزيه عن مشابهة المخلوقين، فأقام الأدلة على أن للكون خالقا واحدة متصفا بما دلت عليه آثار صنعه من الصفات العلمية، كالعم والقدرة والإرادة وغيرها، وعلى أنه لا يشبهه شيء من خلقه، وأن لا نسبة بينه و بينهم إلا أنه موجدهم، وأنهم له وإليه راجعون (١١٢ : ١ قل هو الله أحد ٢ الله الصمد ٣لم يلد ولم يولد ٤ ولم يكن له كفوا أحد) وما ورد من ألفاظ الوجه واليدين والاستواء ونحوها له معان عرفها العرب المخاطبون بالكتاب، ولم يشتهوا في شيء منها وأن ذاته وصفاته يستحيل عليها أن تبرز في جسد أو روح أحد من العالمين، وإنما يختص سبحانه من شاء من عباده[1] بما شاء من علم و سلطان على ما يريد أن يسلطه عليه من الأعمال، على سنة له في ذلك منها في عليه الأزلي، الذي لا يعتريه التبديل، ولا يدنو منه التغيير، وحظر على كل ذى عقل أن يعترف لأحد بشيء من ذلك إلا ببرهان ينتهي في مقدماته إلى حكم الحس وما جاوره من البديهيات التي لا تنقص عنه في الوضوح، بل قد تعلوه، كاستحالة الجمع بين النقيضين أو

(١) يعنى الأنبياء.

ارتفاعهما معا، أو وجوب أن الكل أعظم من الجزء مثلا. وقضى على هؤلاء كغيرهم بأنهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، وغاية أمرهم : أنهم عباد مكرمون[1] وأن ما يجريه على أيديهم فإنما هو بإذن خاص و بتيسير خاص في موضع خاص لحكمة خاصة ولا يعرف ش أن الله في شيء من هذا إلا كما ببرهان تقدم.

دل هذا الدين بمثل قول الكتاب : (١٦: ٧٨ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون[2] والشكر عند العرب معروف أنه تصريف النعمة فيما كان الأنعام بها لأجله – دل بمثل هذا على أن الله وهبنا من الحواس وغرز فينا من القوي ما تصرفه في وجوهه بمحض تلك الموهبة. فكل شخص كاسب لعمله بنفسه لها أو عابها.

وأما ما تتحير فيه مداركنا وتقصر دونه قوانا، وتشعر فيه أنفسنا بسلطان يقهرها. أو ناصر يمدها فما أدركها العجز عنه على أنه فوق ما تعرفه من القوى المسخرة لها، وكان لابد من الخضوع له و الرجوع إليه والاستعانة به – فذلك [3] إنما يرد إلى الله وحده. فلا يجوز أن تخشع إلا له، ولا تطمئن إلا إليه. وكذلك جعل شأنها فيها تخافه وترجوه مما تقبل عليه في الحياة الآخرة، لا يسوغ ها أن تلجأ إلى أحد غير الله في قبول أعمالها من الطيبات، ولا في غفران أفاعيلها من

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى (٢١ : ٢٦ وقالوا : اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون)

(٢) قال المؤلف في الدرس "لعل" في القرآن تعبر دائماً عن الاستعداد، أي جعل لكم هذه الآلات ليعدكم بها للشكر، أو قال : ليعدكم بشكرها لتحميل جميع العلوم بها أي وهذا ما خلقت لأجله، بقرينة "لا تعلمون شيئا" قال "والأفئدة" العقول أين كان محلها، سواء أكان الدماغ أو القلب

(٣) قوله: فذلك الخ الجملة : خبر قوله، وأما ما تتحير الخ وحاصل المعنى أن الشعور بوجود قوة غيبية في الكون هو مما أودع في غرائز البشر ولكن هذه القوة هي لله وحده. فلا يجوز أن يتوجه أحد إلى غيره فيها هو غير معتاد من الأسباب المشتركة بين البشر، ولو كان نبيا أو دولية أو ولياً.

السيئات، فهو وحده مالك يوم الدين.

اجتثت بذلك جذور الوثنية، وماو لبها ممالو اختلف عنها في الصورة والشكل، أو العبارة واللفظ، لم يختلف عنها في المعنى والحقيقة تبع هذا طهارة العقول من الأوهام الفاسدة التي لا تنفك عن تلك العقيدة الباطلة، ثم تنزه النفوس عن الملكات السيئة التي كانت تلازم تلك الأوهام، وتخلصت بتلك الطهارة من الاختلاف في المعبودين وعليهم [١]. وارتفع شأن الإنسان، وسمت قيمته بما صار إليه من الكرامة، بحيث أصبح لا يخضع لأحد إلا لخالق السموات و الأرض. وقاهر الناس أجمعين. وأبيح[٢] لكل أحد. بل فرض عليه أن يقول كما قال إبراهيم (٦ : ٧٠ إلى وجهت وجهى للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين) وكما أمر رسول الله ﷺ أن يقول : (٦ : ٦٢ وإن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتى[٣] لله رب العالمين (١٦٣) لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين).

تجلت بذلك للإنسان نفسه حركة كريمة، و أطلقت إرادته من القيود التي كانت تعقدها بإرادة غيره، سواء كانت إرادة بشرية [٤] ظن أنها شعبة من الإرادة الإلهية – أو أنها هي – كإرادة الرؤساء والمسيطرين، أو إرادة موهومة اخترعها الخيال كما يظن في القبور والأحجار والأشجار والكواكب ونحوها. وافتكت

---

(١) ذكر المؤلف في الدرس هنا مفاسد المنتسبين إلى طرق الصوفية واختلافهم، فليتذكر من يعلم

(٢) عبر بأبيح للإشارة إلى أن ذلك كان محظورة عند الأمم السابقة، فلم يكن يباح لأحد أن يتوجه إلى الله بدون واسطة الرئيس الديني فيكونوا حنفاء، والحنيف المائل عن الباطل إلى الحق الملتزم له، فمن يتوجه إلى غير الله ليقربه إلى الله، فليس بحنيف.

(٣) أي إن صلاتي و جميع عبادتي وحياتى وشئونها ومماتي وما بعده كل ذلك لله وحده لا أتوجه فيه إلى مرضاة غيره، ولا أستعين أحداً على شيء منه استعانة معنوية بل إياه وحده أستعين، مهتدياً بما شرعه من الدين.

(٤) قال المؤلف : كإرادة القديسين والكهنة الذين يأتي ذكرهم مرتبة

عزيمته من أسر الوسائط و الشفعاء، والمتكهنة والعرفاء، وزعماء السيطرة على الأسرار ومنتحلى حق الولاية على أعمال العبد فيما بينه وبين الله. الزاعمين أنهم واسطة النجاة، وبأيديهم الأشقاء والاسعاد. وبالجملة فقد أعتقت روحه من العبودية للمحتالين والدجالين.

صار الإنسان بالتوحيد عبد الله خاصة، حراً من العبودية لكل ما سواه فكان له من الحق ما للحر على الحر، لأعلى في الحق ولا وضيع ولا سافل ولا رفيع، ولا تفاوت بين الناس إلا بتفاوت أعمالهم، ولا تفاضل إلا بتفاضلهم في عقولهم و معارفهم، ولا يقربهم من الله إلا طهارة العقل من دنس الوهم، وخلوص العمل من العوج والرياء، ثم هذا خلصت أموال الكاسبين، وتمحض الحق فيها للفقراء والمساكين و المصالح العامة، وكفت عنها أيدي العالة وأهل البطالة، ممن كان يزعم الحق فيها بصفته ورتبته، لا بعمله و خدمته

طالب الإسلام بالعمل ظل قادر عليه. وقرر أن لكل نفس ما كسبت و عليها ما اكتست (٩٩ : ٧ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره (٨) و من يعمل مثقال ذرة شرا يره) (٥٣ : ٣٩ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) و أباح لكل أحد أن يتناول من الطيبات ما شاء. أكلا وشربا و لباساً و زينة، ولم يحظر عليه إلا ما كان ضاراً بنفسه أو بمن يدخل في ولايته، أو ما بعدى ضرره إلى غيره، و حدد له في ذلك الحدود العامة بما ينطبق على مصالح البشر كافة. فكفل الاستقلال لكل شخص في عمله، واتسع المجال لتسابق الهمم في السعي حتى لم يعد لها عقبة تتعثر بها. اللهم إلا حقا محترما تصطدم به.

أنحى الإسلام على التقليد. وحمل عليه حملة لم يردها عنه القدر، فبددت فيالقه المتغلبة على النفوس. واقتلعت أصوله الراسخة في المدارك ونسفت ما

كان له من دعائم وأركان في عقائد الأمم[1]

صاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته، وهبت به من نومة طال عليه الغيب فيها، كلما نفذ إليه شعاع من نور الحق. خلصت إليه هينمة من سدنة هياكل الوهم "ثم. فإن الليل حالك، والطريق وعرة، والغاية بعيدة، والراحلة كليلة، والأزواد قليلة "

علا صوت الإسلام على وساوس الطغام، و جهر بأن الإنسان لم يخلق لقياد بالزمام، ولكنه فطر على أن يهتدي بالعلم والأعلام – أعلام الكون و دلائل الحوادث – وإنما المعلمون منهون ومرشدون وإلى طريق البحث هادون.

صرح في وصف أهل الحق بأنهم (٣٩ : ١٨ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) فوصفهم بالتمييز بين ما يقال، من غير فرق بين القائلين.. ليأخذوا بما عرفوا حسنه، ويطرحوا ما لم يتبينوا صحته و نفعه ومال على الرؤساء فأنزلهم من مستوى كانوا فيه يأمرون وينهون، ووضعهم تحت أنظار مرءوسيهم يخبرونهم كما يشاءون، ويمتحنون مزاعمهم حسبما يحكمون، ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون لا بما يظنون ويتوهمون.

صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الأباء، وما توارثه عنهم الأبناء، وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين، ونبه على أن السبق في الزمان ليس آية من آيات العرفان، ولا مسميا لعقول على عقول ولأذهان على

---

(1) ذكر المؤلف منها في الدرس ثلاثاً :١– احترام المرء لآبائه و مربيه ٢– اعتقاد عظمة سلفه من رجال الدين ٣– الحذر من إنكار الناس المحتفين به واعتراضهم عليه إذا حاول أن يخرج عما هم عليه، أي فمن لم يحترم نفسه، و استقلال فكره، و يمرن نفسه على الأخذ بما يعتقد أنه الحق، وإن خالف الآباء والمعلمين والأحياء والأموات غير المعصومين من الخطأ، فلا يمكنه أن ينطلق من قيود التقليد، وسيأتي في كلامه ما يهدم تلك القواعد والأركان.

أذهان، وإنما السابق واللاحق في التمييز والفطرة سيان، بل للاحق من علم الأحوال الماضية، و استعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل إليه من آثارها في الكون، ما لم يكن لمن تقدمه من أسلافه و آبائه. و قد يكون من تلك الآثار التي ينتفع بها أهل الجيل الحاضر ظهور العواقب السيئة لأعمال من سبقهم، وطغيان الشر الذي وصل إليهم بما اقترفه سلفهم (٦ : ١١ قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين) وان أبواب فضل الله لم تغلق دون طالب ورحمته التي وسعت كل شيء لن تضيق عن دائب.

عاب أرباب الأديان في اقتفائهم اثر آبائهم، ووقوفهم عند ما اختطته لهم سير أسلافهم، وقولهم (٢١ : ٢١ بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا (٤٣ : ٢٢ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون).

فأطلق بهذا سلطان العقل من كل ما كان قيده، و خلصه من كل تقليد كان استعبده، ورده إلى مملكته. يقضى فيها بحكمه وحكمته مع الخضوع في ذلك لله وحده و الوقوف عند شريعته، ولا حد للعمل في منطقة حدودها، ولا نهاية للنظر يمتد تحت بنودها.

بهذا وما سبقه تم للإنسان بمقتضى دينه أمران عظيمان، طالما حرم منهما، وهما استقلال الإرادة واستقلال الرأي والفكر، وبهما كملت له إنسانيته، واستعد لأن يبلغ من السعادة ما هيأه الله له بحكم الفطرة التي فطر عليها. وقد قال بعض حكماء الغربيين من متأخريهم : إن نشأة المدنية في أوروبا إنما قامت على هذين الأصلين فلم تنهض النفوس للعمل، ولم تتحرك العقول للبحث.والنظر، إلا بعد أن عرف العدد الكثير أنفسهم، وأن لهم حقا في تصريف اختيارهم وفي طلب الحقائق بعقولهم، ولم يصل إليهم هذا النوع من العرفان إلا في الجيل السادس عشر من ميلاد المسيح. وقرر ذلك الحكيم أنه

شعاع سطع عليهم من آداب الإسلام، و معارف المحققين من أهله في تلك الأزمان.

رفع الإسلام بكتابه المنزل ما كان قد وضعه رؤساء الأديان من الحجر على عقول المتدينين في فهم الكتب السماوية، استثارة من أولئك الرؤساء بحق الفهم لأنفسهم، وضنا به على كل من لم يلبس لباسهم، ولم يسلك مسلكهم، لنيل تلك الرتب المقدسة. ففرضوا على العامة أو أباحوا لهم أن يقرءوا قطعا من تلك الكتب، لكن على شريطة أن لا يفهموها، وأن لا يطيلوا أنظارهم إلى ما ترمي إليه ثم غالوا في ذلك فحرموا أنفسهم أيضاً مزية الفهم إلا قليلا، ورموا عقولهم بالقصور عن إدراك ما جاء في الشرائع و النبوات، ووقفوا كما وقفوا بالناس عند تلاوة الألفاظ نعبداً بالأصوات والحروف[1] فذهبوا بمحكمة الإرسال، فجاء القرآن يلبسهم عار ما فعلوا فقال (٢: ٧٨ و منهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون) (٦٢ : ٥ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارة. بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله. والله لا يهدي القوم الظالمين).

أما "الأماني" ففسرت بالقراءات و التلاوات أي لايعلمون منه إلا أن يتلوه، و إذا ظنوا أنهم على شيء مما دعا إليه فهو عز غير علم ما أودعه، و بلا برهان على ما تخيلوه عقيدة وظنوه ديناً. وإذا عن لأحدهم أن يبين شيئاً من أحكامه ومقاصده لشهوة دفعته إلى ذلك جاء فيها يقول بما ليس منه على بينة، واعتسف في التأويل وقال هذا من عند الله (٢: ٧٩ فويل للذين يكتبون

---

(١) أي ووقفوا بأنفسهم كما وقفوا بالناس المقلدين لهم عند ألفاظ الكتاب دون معانيه ومقاصده، وكذلك فعل الذين اتبعوا سننهم من المسلمين مصداقا لما أنبأ به الرسول ﷺ. وأما تعبدنه بالقرآن فهو لأجل تدبره والاهتداء به، ثم لأجل حفظه و تبليغه. فهما مقصدان.

الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا) وأما الذين قال: إنهم لم يحملوا التوراة وهي بين أيديهم بعدما حملوها[1]، فهم الذين لم يعرفوا منها إلا الألفاظ، ولم تسم عقولهم إلى درك ما أودعته من الشرائع والأحكام، فعميت عليهم بذلك طرق الاهتداء بها، وطمست عن أعينهم أعلام الهداية التي نصبت بإنزالها، فحق عليهم ذلك المثل الذي أظهر شأنهم فيما لا يليق بنفس بشرية أن تظهر به : مثل الحمار الذي يحمل الكتب ولا يستفيد من حملها إلا العناء والتعب. وقصم الظهر وانبهار النفس وما أشنع شأن قوم انقلبت بهم الحال، فما كان سبباً في إسعادهم، وهو التنزيل والشريعة، أصبح سببا في شقائهم بالجهل والغباوة.

وهذا التقريع ونحوه، و بالدعوة العامة إلى الفهم، وتمحيص الألباب للتفقه واليقين – مما هو منتشر في القرآن العزيز – فرض الإسلام على كل ذي دين أن يأخذ بحظه من علم ما أودع الله في كتبه وما قرر من شرعه، وجعل الناس في ذلك سواء بعد استيفاء الشرط بإعداد ما لا بد منه للفهم، وهو سهل المنال على الجمهور. الأعظم من المتدينين، لا تخص به طبقة من الطبقات، ولا يحتكر مزيته وقت من الأوقات.

جاء الإسلام والناس شيع في الدين، وإن كانوا – إلا قليلا – في جانب[2] عن اليقين، يتنابزون ويتلاعنون، ويزعمون في ذلك أنهم بحبل الله مستمسكون، فرقة وتخالف وشغب يظنونها في سبيل الله أقوى سبب. أنكر الإسلام ذلك كله وصرح تصريحا لا يحتمل الريبة بأن دين الله في جميع الأزمان، وعلى ألسن جميع

---

(1) حملوها بضم الحاء وتشديد الميم : كلفوا حملها وذلك قوله تعالى لموسى كما حكاه في القرآن (فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها)

(2) أي بمعزل، وقد تكرر هذا الاستعمال في كلامه.

الأنبياء واحد قال الله تعالى (٣ : ١٩ إن الدين عند الله الإسلام. وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم) (٣ : ٦٧ ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين) (٤٢ : ١٣ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه) (٣: ٦٤ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون) وكثير من ذلك يطول إيراده في هذه الوريقات. والآية الكريمة التي تعيب على أهل الدين. ما نزعوا إليه من الاختلاف والمشاقة مع ظهور الحجة واستقامة المحجة لهم في علم ما اختلفوا فيه – معروفة لكل من قرأ القرآن وتلاه حق تلاوته.

نص الكتاب على أن دين الله في جميع الأزمان هو إفراده بالربوبية، والإستسلام له وحده بالعبودية، وطاعته فيما أمر به و نهى عنه مما هو مصلحة للبشر[١] وعماد لسعادتهم في الدنيا والآخرة، وقد ضمنه كتبه التي أنزلها على المصطفين من رسله، ودعا العقول إلى فهمه منه والعزائم إلى العمل به، وأن هذا المعنى من الدين، هو الأصل الذي يرجع إليه عند هبوب ريح التخالف، وهو الميزان الذي توزن به الأقوال عند التناصف : وأن اللجاج والمراء في الجدل فراق مع الدين وبعد عن سنته، ومتى روعيت حكمته ولوحظ جانب العناية الإلهية في الإنعام على البشر به، ذهب الخلاف وتراجعت القلوب إلى هداها،

(١) قوله "مما هو الخ" صفة لما أمر به ونهى عنه كاشفة لا مفهوم لها، والسياق استئناف لبيان وحدة الدين الجملة فيما قبله فصل فيه ما اتحد فيه الدين من أصول ومقاصد، ثم ما اختلف فيه من شرائع ومناهج، النصوص في قوله تعالى (٥: ٤٨ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً) مع الإلمام بحمكة ذلك، وهو من الحقائق التي لم يسبقه إليها سابق.

وسار الكافة في مراشدهم إخواناً بالحق مستمسكين. وعلى نصرته متعاونين.

وأما صور العبادات وضروب الاحتفالات ما اختلفت فيه الأديان الصحيحة سابقها مع لاحقها، واختلاف الأحكام متقدمها مع متأخرها، فمصدره رحمة الله ورأفته في إيتاء كل أمة وكل زمان ما علم فيه الخير للأمة والملاءمة للزمان. وكما جرت سنته – وهو رب العالمين – بالتدريج في تربية الأشخاص من خارج من بطن أمه لا يعلم شيئا، إلى راشد في عقله، كامل في نشأته، يمزق الحجب بفكره، ويواصل أسرار الكون بنظره، كذلك لم تختلف سنته ولم يضطرب هديه في تربية الأمم، فلم يكن من شأن الإنسان في جملته ونوعه أن يكون في مرتبة واحدة من العلم وقبول الخطاب من يوم خلقه الله إلى يوم يبلغ من الكمال منتهاه، بل سبق القضاء بأن يكون شأن جملته في النمو قائما على ما قررته الفطرة الإلهية في شأن أفراده، وهذا من البديهيات التي لا يصح الاختلاف فيها، وإن اختلف أهل النظر في بيان ما تفرع منه في علوم وضعت للبحث في الاجتماع البشرى خاصة، فلا نطيل الكلام فيه هاهنا.

(ترقى الأديان بترقي الإنسان، وإكمالها بالإسلام[1])

جاءت أديان والناس من فهم مصالحهم العامة، بل والخاصة، في طور أشبه بطور الطفولية للناشىء الحديث العهد بالوجود، لا يألف منه إلا ما وقع تحت حسه، ويصعب عليه أن يضع الميزان بين يومه وأمسه، وأن يتناول بذهنه من المعاني مالا يقرب من المسه ولم ينفث في روعه من الوجدان الباطن ما يعطفه

(1) العنوان للناشر، وهو لتنبيه ذهن القارئ، فان الموضوع من أهم حكم الدين، وحجة علمية اجتماعية على نسخ الإسلام لما قبله من الشرائع وعلى كونه الدين الأخير الذي لا يحتاج البشر إلى الأنبياء والوحى السماوى بعده، وقد اشتدت الحاجة إلى بيان ذلك في هذا العصر، ولم يسبق الأستاذ الإمام إليه أحد فيما نعلم.

على غيره من عشيرته أو بني جنسه، فهو من الحرص على ما يقيم بناء شخصه. في هم شاغل عما يلقى إليه فيما يصله بغيره، اللهم إلا يداً تصل إلى فمه بطعام، أو تسنده في قعود أو قيام، فلم يكن من حكمة تلك الأديان أن تخاطب الناس بما يلطف في الوجدان، أو يرقى إليه بسلم البرهان بل كان من عظيم الرحمة أن تسير بالأقوام وهم عيال الله سير الوالد مع ولده في سذاجة السن، لا يأتيه إلا من قبل ما يحسه سمعه أو يضره فأخذتهم بالأوامر الصادعة، والزواجر الرادعة، وطالبتهم بالطاعة وحملتهم فيها على مبلغ الاستطاعة، كلفتهم بمعقول المعنى جلى الغيابة، وإن لم يفهموا معناه، ولم تصل مداركهم إلى مرماه، وجاءتهم من الآيات بما تطرف له عيونهم، وتنفعل به مشاعرهم، وفرضت عليهم من العبادات ما يليق بحالهم هذه[1].

ثم مضت على ذلك أزمان علت فيها الأقوام وسقطت وارتفعت وانحطت، وجربت وكسبت، وتخالفت واتفقت، وذاقت من الأيام آلاما، وتقلبت في السعادة والشقاء أياما وأياماً – ووجدت الأنفس نفث الحوادث، ولقن الكوارث، شعوراً أدن من الحس وأدخل في الوجدان لا يرتفع في الجملة عما تشعر به قلوب النساء أو تذهب معه نزعات الغلمان، فجاء دين يخاطب العواطف، ويناجي المراحم، ويستعطف الأهواء، ويحادث خطرات القلوب، فشرع للناس من شرائع الزهادة ما يصرفهم عن الدنيا بجملتها، ويوجه وجوههم نحو الملكوت الأعلى، ويقتضي من صاحب الحق أن لا يطالب به ولو يحق، ويغلق أبواب السماء في وجوه الأغنياء، وما ينحو نحو ذلك ما هو معروف، وسن للناس سنناً في عبادة الله تتفق مع ما كانوا عليه، وما دعاهم إليه. فلاقي من تعلق النفوس بدعوته ما أصلح من فاسدها، وداوى من أمراضها، ثم لم يمض

---

(1) هذه صفة ديانات آخرها الديانة الموسوية، وما يليها فهو صفة المسيحية.

عليه بضعة أجيال حتى ضعفت العزائم البشرية عن احتماله، وضاقت الذرائع عن الوقوف عند حدوده والأخذ بأقواله، ووقر في الظنون أن أتباع وصاياه ضرب من المحال، فهب القائمون عليه أنفسهم لمنافسة الملوك في السلطان، ومزاحمة أهل الترف في جمع الأموال، وانحرف الجمهور الأعظم منهم عن جادته بالتأويل، وأضافوا عليه ما شاء الهوى من الأباطيل.

هذا كان شأنهم في السجايا والأعمال : نسوا طهارته، وباعوا نزاهته، أما في العقائد فتفرقوا شيعاً، وأحدثوا بدعاً، ولم يستمسكوا من أصوله إلا بما ظنوه من أشد أركانها، وتوهموه من أقوى دعائمها، وهو حرمان العقول من النظر فيه، بل و في غيره من دقائق الأكوان، والحظر على الأفكار أن تنفذ إلى شيء من سرائر الخلقة فصرحوا بأن لا وفاق بين الدين والعقل، وأن الدين من أشد أعداء العلم، ولم يكف الذاهب إلى ذلك أن يأخذ به نفسه، بل جد في حمل الناس على مذهبه بكل ما يملك من حول وقوة، وأفضى الغلو في ذلك بالأنفس إلى نزعة كانت أشأم النزعات على العالم الإنساني وهي نزعة الحرب بين أهل الدين، للالتزام بعض قضايا الدين، فتقوض الأصل و تخرمت العلائق بين الأهل، وحلت القطيعة محل التراحم، والتخاصم مكان التعاون، والحرب محل السلام. وكان الناس على ذلك إلى أن جاء الإسلام.

كانت سنن الاجتماع البشري قد بلغت[1] بالإنسان أشده، وأعدته الحوادث الماضية إلى رشده، فجاء الإسلام يخاطب العقل، ويستصرخ الفهم واللب، ويشركه مع العواطف والإحساس في إرشاد الإنسان إلى سعادته الدنيوية

---

(1) ذكر الأستاذ الأمام ضمير السن هنا، وفي تفسير جزء عم سهوا، ثم إنه تنبه لكون السن مؤنثة فأمر بتصحيحها في جزء عم بعد طبعه، ونسى تصحيحها هنا فصححناها اتباعاً لتصحيحه هناك، وإن كان التأنيث مجازياً.

والأخروية، وبين للناس ما اختلفوا فيه، وكشف لهم عن وجه ما اختصموا عليه، وبرهن على أن دين الله في جميع الأجيال واحد، ومشيئته في إصلاح شئونهم وتطهير قلوبهم واحدة، وأن رسم العبادة على الأشباح، إنما هو لتجديد الذكري في الأرواح، وأن الله لا ينظر إلى الصور، ولكن ينظر إلى القلوب، وطالب المكلف برعاية جسده، كما طالبه بإصلاح سره ففرض نظافة الظاهر، كما أوجب طهارة الباطن، وعد كلا الأمرين طهراً مطلوباً، وجعل روح العبادة الإخلاص، وأن ما فرض من الأعمال، إنما هو لما أوجب من التحلي بمكارم الأخلاق (٢٩ : ٤٥ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) (٧٠ : ١٩ إن الإنسان خلق هلوعا ٢٠ إذا مسه الشر جزوعا ٢١ وإذا مسه الخير منوعا ٢٢ إلا المصلين) ورفع الغنى الشاكر، إلى مرتبة الفقير الصابر، بل ربما فضله عليه، وعامل الإنسان في مواعظه معاملة الناصح الهادي للرجل الرشيد، فدعاه إلى استعمال جميع قواه الظاهرة والباطنة وصرح بما لا يقبل التأويل أن في ذلك رضاء الله وشكر نعمته، وأن الدنيا مزرعة الآخرة، ولا وصول إلى خير العقبى، إلا بالسعي في صلاح الدنيا..

التفت إلى أهل المناد فقال لهم (٢: ١١١ و ٢٧ : ٦٤ قل هاتو برهانكم إن كنتم صادقين) و عنف النازعين إلى الخلاف والشقاق على ما زعزعوا من أصول اليقين، ونص على أن التفرق بغى وخروج عن سبيل الحق المبين، ولم يقف في ذلك عند حد الموعظة بالكلام والنصيحة بالبيان، بل شرع شريعة الوفاق وقررها في العمل، فأباح للمسلم أن يتزوج من أهل الكتاب، وسوغ مؤاكلتهم؛ وأوصى أن تكون مجادلتهم بالتي هي أحسن.

ومن المعلوم أن المجانسة هى رسول المحبة وعقد الألفة، والمصاهرة إنما تكون بعد التحاب بين أهل الزوجين والارتباط بينهما بروابط الائتلاف، وأقل ما

فيها محبة الرجل لزوجته وهي على غير دينه، قال تعالى (٣٠ : ٢١ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودةً ورحمة) ثم أخذ العهد على المسلمين أن يدافعوا عمن يدخل في ذمتهم من غيرهم كما يدافعون عن أنفسهم. ونص على أن لهم مالنا وعليهم ما علينا، ولم يفرض عليهم جزاء ذلك إلا زهيداً يقدمونه من مالهم، ونهى بعد أداء الجزية[1]. عن كل إكراه في الدين، وطيب قلوب المؤمنين في قوله (٥ : ١٠٥ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) فعليهم الدعوة إلى الخير بالتي هي أحسن، وليس لهم ولا عليهم أن يستعملوا أي ضرب من ضروب القوة في الحمل على الإسلام فإن نوره جدير أن يخترق القلوب. وليست الآية في الأمر بالمعروف بين المسلمين، فإنه لا اهتداء إلا بعد القيام به – كل ذلك ليرشد الناس إلى أن الله لم يشرع لهم الدين ليتفرقوا فيه، ولكن ليهدهم إلى الخير في جميع نواحيه.

رفع الإسلام كل امتياز بين الأجناس البشرية. وقرر تكل فطرة شرف النسبة إلى الله في الخلقة، وشرف اندراجها في النوع الانسان في الجنس والفصل والخاصة. وشرف استعدادها بذلك البلوغ أعلى درجات الكمال الذي أعده الله لنوعها، على خلاف ما زعمه المنتحلون من الاختصاص بمزايا حرم منها غيرهم، وتسجيل الخسة على أصناف زعموا أنها لن تبلغ من الشأن أن تلحق غبارهم

---

(١) فيه أن النهي عن الإكراه في الدين نزل قبل سورة براءة التي شرع فيها أخذ الجزية، فالإكراه في الدين ممنوع في الاسلام مطلقاً. ولكن إذا أراد المسلمون محاربة قوم من الكافرين لتعديهم عليهم، أو تهديدهم لدعوتهم مثلا، وجب عليهم أن يدعوهم أولا إلى الإسلام بالاختيار، فإن أسلموا حرم قتالهم، وان لم يسلموا دعوهم إلى أداء الجزية إن كانوا من اهلها، كأنهم يقولون لهم : إنكم ألجأتمونا إلى حربكم فنحن نقدم عليها إلا أن تسلموا أو تؤدوا الجزية، وهذا لا يمنع من الصلح إذا اتفق عليه الفريقان.

[1] فأماتوا بذلك الأرواح في معظم الأمم، وصيروا أكثر الشعوب هياكل وأشباحا.

هذه عبادت الإسلام على ما في الكتاب وصحيح السنة، تتفق على ما يليق بجلال الله وسمو وجوده عن الاشباه، وتلتئم مع المعروف عند العقول السليمة – فالصلاة ركوع وسجود، وحركة وسكون ودعاء و تضرع، و تسبيح و تعظيم، وكلها تصدر عن ذلك الشعور بالسلطان الإلهي الذي يغمر القوة البشرية ويستغرق الحول، فتخشع له القلوب، وتستخذي له النفوس، وليس فيها شيء يعلو على متناول العقل إلا نحو تحديد عدد الركعات، أو رمي الجمرات على أنه مما يسهل التسليم فيه لحكمة العليم الخبير [2] وليس فيه من ظاهر العبث واستحالة المعني ما يخل بالأصول التي وضعها الله للعقل في الفهم والتفكير.

وأما الصوم [3] فحرمان يعظم به أمر الله في النفس وتعرف به مقادير النعم عند فقدها، ومكانة الإحسان الإلهي في التفضل بها (٢: ١٨٤ كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون[4]).

---

(1) هذا الامتياز لا يزال يدعيه أكثرهم ولاسيما الإفرنج، وأفحشه كون الهندوس ثلاث طبقات : الطبقة السفلى تعد رجساً عند من فوقها لا تشاركها في إجماع ولا عبادة ولا مخالطة.

(2) شبه الغزالي ذلك باختلاف مقادير الدواء المركب من أجزاء مختلفة بعضها كثير و بعضها قليل، وكون هذا التفاوت في القلة والكثرة يفوض إلى علم الطبيب الذي وصف الدواء، وأن المريض يكفيه الثقة بعلمه والانتفاع بدوائه، فإذا قال بعد ذلك : أنا لا أقبل منه الدوام إلا بعد أن أعلم فائدة كل جزء منه وفائدة مقداره. كان أحمق ومات بدائه، وإن ثقة المؤمن بعلم الله وحكمته أقوى وأكمل من كل ثقة بغيره من طبيب وصيدلى وسواهما، وزاد على ذلك ثبوت فائدة الصلاة والحج وسائر العبادات في تطهير النفس من الشرور ونهيها عن الفحشاء والمنكر.

(3) كان ينبغي أن يوضع هنا حكمة الزكاة، ولكنه أخرها إلى مناسبة أخرى وستأتي في ص ١٨١.

(4) راجع تفسيرها وقول المؤلف فيها في ص ١٥٧ ج٢ من تفسير المنار طبعة أولى و ١٤٤ طبعة ثانية.

وأما أعمال الحب فتذكير للإنسان بأوليات حاجاته، و تعهد له بتمثيل المساواة بين أفراده ولو في العمر مرة يرتفع فيها الامتياز بين الغني والفقير، والصعلوك والأمير، ويظهر الجميع في معرض واحد مكشوفي الرءوس متجردين عن المخيط، وحدت بينهم العبودية لله رب العالمين، كل ذلك مع استبقائهم في الطواف والسعي والمواقف ولمس الحجر ذكرى ابراهيم عليه السلام وهو أبو الدين، واستقرار يقينهم على أن لا شيء من تلك البقايا الشريفة يضر أو ينفع. وهذا الإذعان الكريم في كل عمل من أعمال العبادات الاسلامية مقرون بمايدل على التنزيه، و تقديس الله عما يوهم التشبيه [1].

أين هذا كله ما تجد في عبادات أقوام آخرين، يضل فيها العقل ويتعذر معها خلوص السر للتنزيه والتوحيد.

كشف الإسلام عن العقل غمة من الوهم فيما يعرض من حوادث الكون الكبير و "العالم" والكون الصغير "الإنسان" فقرر أن آيات الله الكبرى في صنع العالم إنما يجرى أمرها على السنن الألهية[2] التي قدرها في علمه الأزلى لا يغيرها شيء من الطوارىء الجزئية، غير أنه لا يجوز أن يغفل شأن الله فيها. بل ينبغي أن يحيا ذكره عند رؤيتها، فقد جاء على لسان النبي صلى الله عليه وسلم "إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته. فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله حتى ينجلي" وفيه التصريح بأن جميع آيات الكون تجري على نظام واحد، لا يقضى فيه إلا العناية الأزلية على السنن التي أقامته عليها.

---

(1) عبارة الرسالة الأولى هنا : وشعار هذا الإذعان الكريم في كل عمل "الله أكبر" وكان المؤلف صحح العبارة في حاشية نسخة الدرس هكذا "وهم مع هذا الإذعان الكريم في كل عمل مقرون بما ينزه الله عن التشبيه والتجسيم، ثم صححها ثالثة في الجدول بما أثبتناه هنا.

(2) راجع تفسير قوله تعالى (٣ : ١٣٧ قد خلت من قبلكم سنن) وما قاله المؤلف في تفسيرها في الجزء السادس من المجلد الحادي عشر من المنار أو في ص ١٣٨ من جزء التفسير الرابع.

ثم أماط اللثام عن حال الإنسان في النعم التي يتمتع بها الأشخاص أو الأمم، والمصائب التي يرزءون بها، ففصل بين

الأمرين فصلا لا مجال معه للخلط بينهما. فأما النعم التي يتمتع الله بها بعض الأشخاص في هذه الحياة والرزايا التي يرزأ بها في نفسه، فكثير منها كالثروة والجاه، والقوة والبنين، أو الفقر والضمة، والضعف والفقد، ربما يكون كاسبها أو جالبها ما عليه الشخص في سيرته من استقامة وعوج، أو طاعة وعصيان، وكثيراً ما أمهل الله بعض الطغاة البغاة، أو الفجرة الفسقة، وترك لهم متاع الحياة الدنيا إنظاراً لهم، حتى يتلقاه ما أعد لهم من العذاب المقيم في الحياة الأخرى، وكثيرا ما امتحن الله الصالحين من عباده، وأثنى عليهم في الإستسلام لحكمه، وهم الذين إذا أصابتهم مصيبة عبروا عن إخلاصهم في التسليم بقولهم (٢ : ١٥٦ إنا لله وإنا إليه راجعون فلا غضب زيد ولا رضا عمرو، ولا إخلاص سريرة ولا فساد عمل، مما يكون له دخل في هذه الرزايا، ولا في تلك النعم الخاصة اللهم إلا فيما ارتباطه بالعمل ارتباط المسبب بالسبب على جارى العادة، وكارتباط الفقر بالإسراف، والذل بالجبن، وضياع السلطان بالظلم، وكارتباط الثروة بحسن التدبير في الأغلب، والمكانة عند الناس بالسعي في مصالحهم على الأكثر، وما يشبه ذلك مما هو مبين في علم آخر.

وأما شأن الأمم فليس على ذلك، فإن الروح الذي أودعه الله جميع شرائعه الإلهية من تصحيح الفكر، وتسديد النظر، وتأديب الأهواء، وتحديد مطامح الشهوات، والدخول إلى كل أمر من بابه، وطلب كل رغيبة من أسبابها، وحفظ الأمانة، واستشعار الأخوة، والتعاون على البر، والتناصح في الخير والشر. وغير ذلك من أصول الفضائل – ذلك الروح هو مصدر حياة الأمم ومشرق سعادتها في هذه الدنيا قبل الآخرة (٣: ١٤٥ ومن يرد ثواب الدنيا

نؤته منها[1]) ولن يسلب الله عنها نعمته مادام هذا الروح فيها : يزيد الله النعم بقوته، وينقصها بضعفه، حتى إذا فارقها ذهبت السعادة على أثره وتبعته الراحة إلى مقره، واستبدل الله عزة القوم بالذل [2]. وكثرهم بالقل، و نعيمهم بالشقاء، وراحتهم بالعناء، وسلط عليهم الظالمين أو العادلين، فأخذهم بهم وهم في غفلة ساهون (١٧ : ١٦ وإذا أردنا أن نهلك قريةً أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) أمرناهم بالحق ففسقوا عنه إلى الباطل، ثم لاينفعهم الأنين، ولا يجديهم البكاء، ولا يفيدهم ما بقى من صور الأعمال ولا يستجاب منهم الدعاء، ولا كاشف لا نزل بهم إلا أن يلجئوا إلى ذلك الروح الأكرم فيستنزلوه من سماء الرحمة برسل الفكر والذكر، والصبر والشكر (١٣ : ١١ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) (٣٣ : ٦٢ سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) وما أجل ما قاله العباس ابن عبد المطلب في استسقائه "اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب، ولم يرفع إلا بتوبة".

على هذه السنن جرى سلف الأمة، فبينما كان المسلم يرفع روحه بهذه العقائد السامية، و يأخذ نفسه ما يتبعها من الأعمال الجليلة. كان غيره يظن أنه يزلزل الأرض بدعائه، ويشق الفلك ببكائه، وهو ولع بأهوائه ماض في غلوائه، وما كان يغني عنه ظنه من الحق شيئا[3].

حث القرآن على التعليم وإرشاد العامة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقال (٩: ١٢٢ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين

---

(1) راجع تفسير المؤلف هذه الآية في الجزء الرابع من تفسير المنار

(2) الصواب في استعمال الاستبدال والتبدل أن تقرن الباء بالمبدل منه.

(3) يعني أن المسلمين لما كانوا في القرون الأولى يجرون على سنن الله تعالى في أسباب السيادة والقوة كان بعض الشعوب كالنصارى مغرورين بدينهم يظنون أنهم ينالون كل شي، وتخرق لهم العوائد ببركة القديسين ودعائهم، ثم انقلبت الحال كما ترى.

ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) ثم فرض ذلك في قوله (٣ : ١٠٤ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون ١٠٥ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ١٠٦ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه، فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم ؟ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ١٠٧ وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون ١٠٨ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلماً للعالمين ١٠٩ ولله ما في السموات وما في الأرض وإلى الله ترجع الأمور).

ثم بعد هذا الوعيد الذي يزعج المفرطين، وتحق به كلمة العذاب على المختلفين والمقصرين، أبرز حال الأمارين بالمعروف الناهين عن المنكر في أجلّ مظهر يمكن أن تظهر فيه حال أمة فقال (٣: ١١٠ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله [١] فقدم ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان في هذه الآية مع أن الإيمان هو الأصل الذي تقوم عليه أعمال البر، والدوحة التي تتفرع عنها أفنان الخير تشريفا لتلك الفريضة وإعلاء لمنزلتها بين الفرائض، بل تنبيهاً على أنها حفاظ الإيمان وملاك أمره، ثم شد بالإنكار على قوم أغفلوها، و أهل دين أهملوها، فقال (٥ : ٧٨ لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ٧٩ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون) فقذف عليهم اللعنة وهي أشد ما عنون الله به على مقته وغضبه [٢].

* * *

(١) راجع تفسير هذه الآية والآيات التي بعدها وما قاله المؤلف فيها في الجزء الرابع من تفسير المنار.

(٢) راجع تفسيرها في جزء التفسير السادس.

فرض الإسلام للفقراء في أموال الأغنياء حقاً معلوما يفيض به الغني على الفقير، سداً لحاجة المعدم، و تفريجا لكربة الغارم، وتحريراً لرقاب المستعبدين، وتيسيراً لأبناء السبيل، ولم يحث على شيء حثه على الانفاق من الأموال في سبيل الخير، وكثيراً ما جعله عنوان الإيمان، ودليل الاهتداء إلى الصراط المستقيم، فاستل بذلك ضغائن أهل الفاقة، ومحص صدورهم من الأحقاد على من فضلهم الله عليهم في الرزق، وأشعر قلوب أولئك محبة هؤلاء، وساق الرحمة في نفوس هؤلاء على أولئك البائسين، فاستقرت بذلك الطمأنينة في نفوس الناس أجمعين. وأي دواء الأمراض الاجتماع أنجع من هذا ؟ (٦٢ : ٤ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) أغلق الإسلام بابي الشر وسد ينبوعى فساد العقل والمال بتحريمه الخمر والمقامرة والربا تحريماً باتا لا هوادة فيه.

لم يدع الإسلام بعد ما قررنا أصلا من أصول الفضائل إلا أتي عليه، ولا أما من أمهات الصالحات إلا أحياها، ولا قاعدة من قواعد النظام إلا قررها، فاستجمع للإنسان عند بلوغ رشده كما ذكرنا حرية الفكر، واستقلال العقل في النظر، وما به صلاح السجايا وإستقامة الطبع، وما فيه إنهاض العزائم إلى العمل، وسوقها في سبل السعي، ومن يتل القرآن حق تلاوته يجد فيه من ذلك كنزاً لا ينفد، وذخيرة لا تفنى.

هل بعد الرشد وصاية ؟ و بعد اكتمال العقل ولاية ؟ كلا قد تبين الرشد من الغي، ولم يبق إلا إتباع الهدى.. والانتفاع بما ساقته أيدي الرحمة لبلوغ الغاية من السعادتين.

لهذا ختمت النبوات بنبوة مُحَمَّد (ص) وانتهت الرسالات برسالته كما صرح بذلك الكتاب وأيدته السنة الصحيحة، وبرهنت عليه خيبة مدعيها من بعده، واطمئنان العالم بما وصل إليه من العلم إلى أن لاسبيل بعد لقبول دعوة يزعم

القائم بها أنه يحدث عن الله بشرع أو يصدع عن وحيه بأمر، هكذا يصدق نبأ الغيب (٣٣: ٤٠ ما كان مُحَمَّد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما).

انتشار الإسلام

بسرعة لم يعهد لها نظير في التاريخ

كانت حاجة الأمم إلى الإصلاح عامة فجعل الله رسالة خام النبيين عامة كذلك، لكن يدهش عقل الناظر في أحوال البشر عندما يرى أن هذا الدين يجمع إليه الأمة العربية من أدناها إلى أقصاها في أقل من ثلاثين سنة، ثم يتناول من بقية الأمم ما بين المحيط الغربي و جدار الصين في أقل من قرن واحد، وهو أمر لم يعهد في تاريخ الأديان، ولذلك ضل الكثير في بيان السبب، وأهتدي إليه المنصفون فبطل العجب.

ابتدأ هذا الدين بالدعوة كغيره من الأديان، ولقي من أعداء أنفسهم أشد ما يلقى حق من باطل : أوذي الداعي (ص) بضروب الإيذاء وأقم في وجه ما كان يصعب تذليله من العقاب لولا عناية الله، وعذب المستجيبون له، وحرموا الرزق، وطردوا من الدار وسفكت مهم دماء غزيرة، غير أن تلك الدماء كانت عيون العزائم تتفجر من صخور الصبر، يثبت الله يشهدها المستيقنين.. ويقذف بها الرعب في أنفس المرتابين، فكانت تسيل لنظرها نفوس أهل الريب وهى ذوب ما فسد من طباعهم، فتجري من مناحرهم جرى الدم الفاسد من المقصود على أيدي الأطباء الحاذقين (٨ : ٣٧ لميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون).

تألبت الملل المختلفة ممن كان يسكن جزيرة العرب وما جاورها على الإسلام ليحصدوا نبتته، ويخنقوا دعوته، فما زال يدافع عن نفسه دفاع

الضعيف للأقوياء، والفقير للأغنياء، ولا ناصر له إلا أنه الحق بين الأباطيل، والرشد في ظلمات الأضاليل حتى ظفر بالعزة، وتعزز بالمنعة. وقد وطيء أرض الجزيرة أقوام من أديان أخر كانت تدعو إليها. وكانت لهم ملوك وعزة وسلطان. وحملوا الناس على عقائدهم بأنواع من المكاره. ومع ذلك لم يبلغ بهم السعى نجاحا، ولا أنالهم القهر فلاحا.

ضم الإسلام سكان القفار العربية إلى وحدة لم يعرفها تاريخهم، : ولم يعهد لها نظير في ماضيهم، وكان النبي (ص) قد أبلغ رسالته

بأمر ربه إلى من جاور البلاد العربية من ملوك الفرس والرومان،. فهزموا وامتنعوا، وناصبوه وقومه الشر، وأخافوا السابلة، وضيقوا على المتاجر، فغزاهم بنفسه، وبعث إليهم البعوث في حياته وجري على سنته الأئمة من صحابته، طلبا للأمن، وإبلاغاً للدعوة، فاندفعوا في ضعفهم وفقرهم يحملون الحق على أيديهم، وانهالوا به على تلك الأمم في قوتها ومنعتها، وكثرة عددها، واستكمال اهبها وعددها، فظفروا منها بما هو معلوم. وكانوا متى وضعت الحرب أوزارها واستقر السلطان للفاتح عطفوا على المغلوبين بالرفق واللين، وأباحوا لهم البقاء على أديانهم وإقامة شعائرها آمنين مطمئنين، ونشروا حمايتهم عليهم يمنعونهم مما يمنعون منه أهلهم وأموالهم، وفرضوا عليهم كفاء ذلك جزءاً قليلا من مكاسبهم على شرائط معينة.

كانت الملوك من غير المسلمين إذا فتحوا مملكة أتبعوا جيشها الظافر بجيش من الدعاة إلى دينها، يلجون على الناس بيوتهم ويغشون مجالسهم ليحملوهم على دين الظافر، و برهانهم الغلبة، وحجتهم القوة، ولم يقع ذلك لفاتح من المسلمين، ولم يعهد في تاريخ فتوح الإسلام أن كان له دعاة معروفون لهم وظيفة ممتازة يأخذون على أنفسهم العمل في نشره ويقفون مسعاه على بث

عقائده بين غير المسلمين، بل كان المسلمون يكتفون بمخالطة من عداهم ومحاسنتهم في المعاملة، وشهد العالم بأسره أن الإسلام كان يعد مجاملة المغلوبين فضلا وإحساناً عند ما كان يعدها الأوربيون ضعة وضعفاً.

رفع الإسلام ما ثقل من الأتاوات، ورد الأموال المسلوبة إلى أربابها، وانتزع الحقوق من مغتصبها، ووضع المساواة في الحق عند التقاضي بين المسلم وغير المسلم.

بلغ أمر المسلمين فيما بعد أن لا يقبل إسلام من داخل فيه إلا بين يدى قاض شرعي بإقرار من المسلم الجديد أنه أسلم. بلا إكراه ولا رغبة في دنيا[1]

وصل الأمر في عهد بعض الخلفاء الأمويين أن كره عمالهم دخول الناس في دين الإسلام لما رأوا أنه ينقص من مبالغ الجزية وكان في حال أولئك المال صد عن سبيل الدين لا محالة، ولذلك أمر عمر بن عبد العزيز بتعزيز مثل أولئك العمال [2].

عرف خلفاء المسلمين وملوكهم في كل زمان ما لبعض أهل الكتاب بل وغيرهم من المهارة في كثير من الأعمال فاستخدموهم وصعدوا بهم إلى أعلى المناصب حتى كان منهم من تولى قيادة الجيش في أسبانيا.

اشتهرت حرية الأديان في بلاد الإسلام حتى هجر اليهود أوربا فراراً منها بدينهم إلى بلاد الأندلس وغيرها.

---

(1) لقد كان هذا في الدولة العثمانية والأقطار الخاضعة لسيادتها كمصر بنفوذ دول الإفرنج فيها وهو مخالف للشريعة الإسلامية، ومخل بشرف الدولة.

(2) شكا إليه عامله عصر ذلك فأجابه : إن مُحَمَّداً (ص) بعث هادياً، ولم يبعث جابياً، ويا له من جواب ممن آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب.

هذا ما كان من أمر المسلمين في معاملتهم لمن أظلوهم بسيوفهم لم يفعلوا شيئا سوى أنهم حملوا إلى أولئك الأقوام كتاب الله وشريعته وألقو بذلك بين أيديهم، و تركوا الخيار لهم في القبول وعدمه، ولم يقوموا بينهم بدعوة، ولم يستعملوا لإكراههم عليه شيئا من القوة، وما كان من الجزية لم يكن مما يثقل أداؤه على من ضربت عليه – فما الذي أقبل بأهل الأديان المختلفة على الإسلام وأقنعهم أنه الحق دون ما كان لديهم حتى دخلو فيه أفواجاً وبذلوا في خدمته ما لم يبذله العرب أنفسهم؟

ظهور الإسلام على ما كان في جزيرة العرب من ضروب العبادات الوثنية و تغلبه على ما كان فيها من رذائل الأخلاق وقبائح الأعمال وسيره بسكانها على الجادة القويمة – حقق لقراء الكتب الإلهية السابقة أن ذلك هو وعد الله لنبيه إبراهيم وإسماعيل وتحقيق استجابة دعاء الخليل (٢: ١٢٩ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم) وأن هذا الدين هو ما كانت تبشر به الأنبياء أقوامها من بعدها [١] فلم يجد أهل النصفة منهم سبيلا إلى البقاء على العناد في مجاحدته فتلقوه شاكرين، و تركوا ما كان لهم بين قومهم صابرين.

أوقع ذلك من الريب في قلوب مقلديهم ما حركهم إلى النظر فيه، فوجدوا لطفاً ورحمة، وخيراً ونعمة، لا عقيدة ينفر منها العقل وهو رائد الإيمان الصادق، ولا عمل تضعف عن احتماله الطبيعة البشرية وهي القاضية في قبول المصالح والمرافق، رأوا أن الإسلام يرفع النفوس بشعور من اللاهوت، يكاد يعلو بها عن العالم السفلى ويلحقها بالملكوت الأعلى، ويدعوها إلى إحياء ذلك الشعور بخمس صلوات في اليوم، وهو مع ذلك لا يمنع من التمتع بالطيبات، ولا يفرض

---

(١) تراجع هذه البشارات في تفسير قوله تعالى (٧ : ١٥٧ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل) في الجزء التاسع من تفسير النار.

من الرياضات وضروب الزهادة ما يشق على الفطرة البشرية تجشمه، ويعد برضا الله و نيل ثوابه حتى في توفية البدن حقه متى حسنت النية وخلصت السريرة، فإذا نزت شهوة أو غلب هوى كان الغفران الإلهي ينتظره من حسنت التوبة، وكملت الأوبة.

تبدت لهم سذاجة الدين عند ماقرؤا القرآن و نظروا في سيرة الطاهرين من حامليه إليهم، وظهر لهم الفرق بين مالا سبيل إلى فهمه وما تكفي جولة نظر في الوصول إلى علمه [1] فتراموا إليه خفافا من ثقل ما كانوا عليه.

كانت الأمم تطلب عقلا في دين فوافاها، وتتطلع إلى عدل في إيمان فأتاها، فما الذي يحجم بها عن المسارعة إلى طلبتها، والمبادرة إلى رغبتها ؟ كانت الشعوب تئن من ضروب الامتياز التي رفعت بعض الطبقات على بعض بغير حق، وكان من حكمها أن لا يقام وزن لشئون الأدنين متي عرضت دونها شهوات الأعلين. فجاء دين يحدد الحقوق، ويسوى بين جميع الطبقات في احترام النفس والدين والعرض والمال، ويسوغ لامرأة فقيرة غير مسلمة أن تأبى بيع بيت صغير بأية قيمة لأمير عظيم مطلق السلطان في قطر كبير وما كان يريده لنفسه ولكن ليوسع به مسجداً فلما عقد العزيمة على أخذه مع دفع أضعاف قيمته، رفعت الشكوى إلى الخليفة فورد أمره برد. بيتها إليها مع لوم الأمير على ما كان منه[2] عدل يسمح ليهودى أن يخاصم مثل علي بن أبي طالب أمام القاضي وهو من نعلم من هو، ويستوقفه منه للتقاضي إلى أن قضى الحق بينهما.

---

(1) الأول: كالجمع بين التثليث والتوحيد. والثاني : عالم الغيب غير المحال

(2) وقع هذا لامرأة قبطية مع أمير مصر وفاتحها عمرو بن العاص والخليفة التي أشكاها منه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض)

هذا وما سبق بيانه مما جاء به الإسلام هو الذي حببة إلى من كانوا أعداءه، ورد إليه أهواءهم حتى صاروا أنصاره وأولياءه

غلب على المسلمين في كل زمن روح الإسلام فكان من خلقهم العطف على من جاورهم من غيرهم، ولم تستشعر قلوبهم عداوة لمن خالفهم إلا بعد أن يحرجهم الجار، فهم كانوا يتعلمونها من سواهم ثم لا يكون إلا طائفا يحل ثم يرتحل، فإذا انقطعت أسباب الشغب تراجعت القلوب إلى سابق ما ألفته من اللين والمياسرة، ومع ذلك بل وغفلة المسلمين عن الإسلام وخذلانهم له وسعى الكثير منهم في هدمه بعلم وبغير علم، لم يقف الإسلام في انتشاره عند حد. خصوصا في الصين وفي أفريقيا، ولم يخل زمن من رؤية جموع كثيرة من ملل مختلفة تنزع إلى الأخذ بعقائده على بصيرة فيها تنزع إليه : لا سيف وراءها، ولا داعي أمامها، وإنما هو مجرد الاطلاع على ما أودعه، مع قليل من حركة الفكر في العلم بما شرعه.

ومن هذا تعلم أن سرعة انتشار الدين الإسلامي، وإقبال الناس على الاعتقاد به من كل ملة إنما كان لسهولة تعقله، ويسر أحكامه وعدالة شريعته، وبالجملة لأن فطر البشر تطلب دينا وترتاد منه ما هو أمس بمصالحها، وأقرب إلى قلوبها ومشاعرها، وأدعى إلى الطمأنينة في الدنيا والآخرة، ودين هذا شأنه يجد إلى القلوب منفذاً وإلى العقول مخلصاً، وبدون حاجة إلى دعاة ينفقون الأموال الكثيرة، والأوقات الطويلة، ويستكثرون من الوسائل و نصب الحبائل لإسقاط النفوس فيه.

هذا كان حال الإسلام في سذاجته الأولى، وطهارته التي أنشأه القه عليها، ولا يزال على جانب عظيم منها في بعض أطراف الأرض إلى اليوم.

* * *

قال من لم يفهم ما قدمناه أو لم يرد أن يفهمه : إن الإسلام لم يطف على قلوب العالم بهذه السرعة إلا بالسيف، لقد فتح المسلمون ديار غيرهم والقرآن بإحدى اليدين والسيف بالأخرى يعرضون القرآن على المغلوب فإن لم يقبله فصل السيف بينه و بين حياته

سبحانك هذا بهتان عظيم. ما قدمناه من معاملة المسلمين مع من دخلوا تحت سلطانهم هو ما تواترت به الأخبار تواتراً صحيحا لا يقبل الريبة في جملته، وإن وقع اختلاف في تفصيله، وإنما شهر المسلمون سيوفهم دفاعا عن أنفسهم، وكفا للعدوان عنهم، ثم كان الافتتاح بعد ذلك من ضرورة الملك، ولم يكن من المسلمين مع غيرهم إلا أنهم جاوروهم وأجاروهم. فكان الجوار طريق العلم بالإسلام. وكانت الحاجة لصلاح العقل و العمل داعية الانتقال إليه.

لو كان السيف ينشر دينا[1] فقد عمل في الرقاب للإكراه على الدين والإلزام به. مهدداً كل أمة لم تقبله بالإبادة والمحو من سطح البسيطة، مع كثرة الجيوش ووفرة العدد، وبلوغ القوة أسمى درجة كانت تمكن لها، وابتدأ ذلك العمل قبل ظهور الإسلام بثلاثة قرون كاملة، واستمر في شدته بعد مجيء الإسلام سبعة أجيال أو يزيد. فتلك عشرة قرون كاملة لم يبلغ فيها السيف من كسب عقائد البشر مبلغ الإسلام في أقل من قرن، هذا ولم يكن السيف وحده بل كان الحسام لا يتقدم خطوة إلا والدعاة من خلفه يقولون ما يشاءون تحت حمايته مع غيرة تفيض من الأفئدة، وفصاحة تتدفق عن الألسنة، وأموال تخلب ألباب المستضعفين، إن في ذلك لآيات للمستيقنين.

جلت حكمة الله في أمر هذا الدين: سلسبيل حياة نبع في القفار العربية،

---

(1) هذا بيان لما فعله الإفرنج من نشر النصرانية بالإكراه، وقهر القوة العسكرية قبل الإسلام وبعده، وهو الذي اتهموا به المسلمين من بعد زوراً وبهتاناً.

أبعد بلاد الله عن المدنية فاض حتى شملها جمع شملها فأحياها حياة شعبية ملية، علا مده حتى استغرق مالك كانت تفاخر أهل السماء في رفعتها، وتعلو أهل الأرض بمدنيتها، زلزل هديرة على لينه ما كان استحجر من الأرواح فانشقت عن مكنون سر الحياة فيها، قالوا كان لا يخلو من غلب (بالتحريك) قلنا تلك سنة الله في الخلق : لا تزال المصارعة بين الحق والباطل. والرشدو الغي، قائمة في هذا العالم إلى أن يقضي الله قضاءه فيه. إذا ساق ربيعاً إلى أرض جدية ليحيى ميتتها، وينفع غلتها، وينمى الخصب فيها، أفينقص من قدره أن أتي في طريقه على عقبة فعلاها، أو بيت رفيع العماد فهوى به ؟

سطع الإسلام على الديار التي بلغها أهله[1] فلم يكن بين أهل تلك الديار وبينه إلا أن يسمعوا كلام الله ويفقهوه، واشتغل المسلمون بعضهم ببعض زمناً وانحرفوا عن طريق الدين أزماناً، فوقف وقفة القائد خذله الأنصار، وكاد يتزحزح إلى ما وراءه، لكن الله بالغ أمره، فانحدرت إلى ديار المسلمين أمم من التتار يقودها جنكيز خان وفعلوا المسلمين الأفاعيل، وكانوا وثنيين، جاءوا لمحض الغلبة والسلب والنهب، ولم يلبث أعقابهم أن اتخذوا الإسلام ديناً. وحملوه إلى أقوامهم فعمهم منه ما عم غيرهم : جاءوا لشقوتهم فعادوا بسعادتهم.

حمل الغرب على الشرق حملة واحدة[2] لم يبق ملك من ملوكه ولا شعب من شعوبه إلا إشترك فيها، واستمرت المجالدات بين الغربيين والشرقيين أكثر من مائتي سنة جمع فيها الغربيون من الغيرة والحمية للدين مالم يسبق لهم من قبل، وجيشوا من الجند وأعدوا من القوة ما بلغته طاقتهم، وزحفوا إلى ديار المسلمين،

---

(١) بيان لما فعله الإسلام من هداية شعوب الأعاجم في أثر بيان ما فعله في العرب.

(٢) بيان للحروب الصليبية لإبادة الإسلام من الشرق، وينبغي لكل مسلم أن يعرف تفصيلها وما استفاده الأوربيون من فضائل الإسلام التي حملتهم على إصلاح أمور دينهم ودنياهم، وأكثر المسلمين يجهلون هذا.

وكانت فيهم بقية من روح الدين، فغلب الغربيون على كثير من البلاد الإسلامية وانتهت تلك الحروب الجارفة بإجلائهم عنها.

لم جاءوا وبماذا رجعوا؟ ظفر رؤساء الدين في الغرب بإثارة شعوبهم ليبدوا ما يشاءون من سكان الشرق أو يستولي سلطان. تلك الشعوب على ما يعتقدون لأنفسهم الحق في الإستيلاء عليه من البلاد الإسلامية، جاء من الملوك والأمراء وذوى الثروة وعلية الناس جم غفير، وجاء من دونهم من الطبقات ما قدروه بالملايين، استقر المقام بكثير من هؤلاء في أرض المسلمين، وكانت فترات تنطفيء فيها نار الغضب وتثوب العقول إلى سكينتها. تنظر في أحوال المجاورين، وتلتقط من أفكار المخالطين، وتنفعل بما ترى وما تسمع فتبينت أن المبالغات التي أطاشت الأحلام، وجسمت الألام، لي تصب مستقر الحقيقة، ثم وجدت حريق في دين، وعلماً وشرعاً وصنعة مع كمال في يقين، وتعلمت أن حرية الفكر وسعة العلم من وسائل الإيمان لا من العوادي عليه، ثم جمعت من الآداب ما شاء الله وانطلقت إلى بلادها قريرة العين ما غنمته من جلادها، هذا إلى ما كسبه السفار من أطراف المالك إلى بلاد الأندلس. بمخالطة حكمائها وأدبائها، ثم عادوا به إلى شعوبهم ليذيقوهم حلاوة ما كسبوا، وأخذت الأفكار من ذلك العهد تتراسل والرغبة في العلم تتزايد بين الغربيين، ونهضت اللهم لقطع سلاسل التقليد، ونزعت العزائم إلى تقييد سلطان زعماء الدين، والأخذ على أيديهم فيما تجاوزوا فيه وصاياه، وحرفوا في معناه، ولم يكن بعد ذلك إلا قليل من الزمن حتى ظهرت طائفة مهم تدعو إلى الإصلاح والرجوع بالدين إلى سذاجته وجاءت في إصلاحها بما لا يبعد عن الإسلام إلا قليلا، بل ذهب بعض طوائف الإصلاح في العقائد[1] إلى ما يتفق مع عقيدة الإسلام إلا في التصديق

(1) هم طائفة الموحدين وأكثرهم من الإنجليز والأمريكان.

برسالة مُحَمَّد ﷺ وأن ما هم عليه إنما هو دينه يختلف عنه اسماً ولا يختلف معنى إلا في صورة العبادة لا غير.

ثم أخذت، أمم أوروبا تفتك من أسرها، وتصلح من شئونها حتى استقامت أمور دنياها على مثل ما دعا إليه الإسلام، غافلة عن قائدها، لاهية عن مرشدها، وتقررت أصول المدنية الحاضرة، التي تفاخر بها الأجيال المتأخرة ما سبقها من أهل الأزمان الغابرة،

هذا طل من وابله أصاب أرضاً قابلة فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، جاء القوم ليبيدوا، فاستفادوا وعادوا ليفيدوا ظن الرؤساء أن في إهاجة شعوبهم شفاء ضغنهم، وتقوية ركنهم. فباءوا بوضوح شأنهم وضعضعة سلطانهم، وما بيناه في شأن الإسلام – ويعرفه كل من تفقه فيه – قد ظفر به كثير من أهل النظر في بلاد الغرب فعرفوا له حقه، واعترفوا أنه كان أكبر أساتذتهم فيما هم فيه اليوم[1]، وإلى الله عاقبة الأمور.

(1) قد أورد المؤلف الشواهد على هذا في كتابه (الإسلام : والنصرانية).

إيراد سهل الايراد

يقول قائلون : إذا كان الإسلام إنما جاء لدعوة المختلفين إلا الاتفاق وقال في كتابه (٦ : ١٥٩ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعة لست منهم في شيء) فما بال الملة الإسلامية قد مزقتها المشارب، وفرقت بين طوائفها المذاهب ؟

إذا كان الإسلام موحداً فما بال المسلمين عددوا؟ إذا كان مولياً وجه العبد وجهة الذي خلق السموات والأرض، فما بال جمهورهم يولون وجوههم من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضراً، ولا يستطيع من دون الله خيراً ولا شراً، وكادوا يعدون ذلك فصلا من فصول التوحيد ؟

إذا كان أول دين خاطب العقل ودعاه إلى النظر في الأكوان وأطلق له العنان، يجول في ضمائرها بما يسعه الإمكان، ولم يشرط عليه في ذلك سوى المحافظة على عقد الإيمان، فما بالهم قنعوا باليسير وكثير منهم أغلق على نفسه باب العلم، ظنا منه أنه قد يرضى الله بالجهل وإغفال النظر في أبدع من محكم الصنع؟

ما بالهم وقد كانوا رسل المحبة أصبحوا اليوم وهم يتنسمونها ولا يجدونها ؟ ما بالهم بعد أن كانوا قدوة في الجد و العمل، أصبحوا مثلا في القعود والكسل؟

ما هذا الذي ألحق المسلمون بدينهم وكتاب الله بينهم يقيم ميزان القسط بين ما ابتدعوه، وبين ما دعاه إليه فتركوه ؟.

إذا كان الإسلام في قربه من العقول والقلوب على ما بينت، فما باله اليوم على رأى القوم تقصر دون الوصول إليه يد المتناول ؟.

إذا كان الإسلام يدعو إلى البصيرة فيه فما بال قراء القرآن لا يقرءونه إلا

تغنياً ورجال العلم بالدين لا يعرفه أغلبهم إلا تظنياً ؟

إذا كان الإسلام منح العقل والإرادة شرف الاستقلال. فما بالهم شدوهما إلى أغلال أي أغلال؟

إذا كان قد أقام قواعد العدل، فما بال أغلب حكامهم يضرب بهم المثل في الظلم ؟

إذا كان الدين في تشوف إلى حرية الأرقاء. فما بالهم قضوا قروناً في استعباد الأحرار ؟

إذا كان الإسلام يعد من أركانه حفظ العهود والصدق والوفاء. فما بالهم قد فاض بينهم الغدر والكذب والزور والافتراء ؟

إذا كان الإسلام يحظر الغيلة ويحرم الخديعة ويوعد على الغش بأن الغاش ليس من أهله، فما بالهم يحتالون حتى على الله وشرعه وأوليائه ؟

إذا كان قد حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، فما هذا الذي تراه بينهم في السر والعلن، والنفس والبدن؟

إذا كان قد صرح بأن الدين النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين خاصتهم وعامتهم و (إن [1] الإنسان لفي خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات و تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) وأنهم إن لم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر سلط عليهم شرارهم فيدعو خيارهم فلا يستجاب لهم [2] وشدد في ذلك بما لم يشدد في غيره. فما بالهم لا يتناصحون ولا يتواصون بحق ولا يعتصمون بصبر، ولا يتناصحون في خير ولا شر ؟ بل ترك كل صاحبه. وألقى حبله على غاربه،

---

(1) إن هنا مكسورة حكاية لنص القرآن. أي وصرح بهذا النص.

(2) هو مضمون حديث مرفوع رواه البزار والطبراني في الأوسط عن أبي هريرة.

فعاشوا أفذاذاً، وصاروا في أعمالهم أفراداً. لا يحس

أحدهم ما يكون من عمل أخيه كأنه ليس منه، وكأنه لم تجمعه معه صلة، ولم تضمه إليه وشيجة.

ما بال الأبناء يقتلون الآباء ؟ وما بال البنات يعققن الأمهات؟ أين وشائج الرحمة ؟ أين عاطفة الرحم على القريب ؟ أين الحق الذي فرض في أموال الأغنياء للفقراء. وقد أصبح الأغنياء يسلبون ما بقي في أيدي أهل البأساء ؟

قبس من الإسلام أضاء الغرب كما تقول وضوءه الأعظم وشمسه الكبرى في الشرق، و أهله في ظلمات لا يبصرون. أصح هذا في عقل ؟ أو عهد في نقل ؟ ألم تر إلى الذين تذوقوا من العلم شيئا وهم من أهل هذا الدين أول ما يعلق بأوهام أكثرهم أن عقائده خرافات، وقواعده وأحكامه ترهات ؟ ويجدون لذتهم في التشبه بالمستهزئين ممن سموا أنفسهم أحرار الأفكار، و بعداء الأنظار، وإلى الذين فصروا هممهم على تصفح أوراق من كتبه، ووسموا أنفسهم بأنهم حفاظ أحكامه والقوام على شرائعه، كيف يخافون علوم النظر ويهزءون بها، ويرون العمل فيها[1] عبثاً في الدين والدنيا، ويفتخر الكثير منهم بجهلها، كأنه في ذلك قد هجر منكراً، وترفع عن دنيئة، فمن وقف على باب العلم من المسلمين، يجد دينه كالثوب الخلق يستحي أن يظهر به بين الناس، ومن غرته نفسه بأنه على شيء من الدين وأنه مستمسك بعقائده، برى العقل جنة. والعلم ظنة، أليس في هذا ما يشهد الله وملائكته والناس أجمعين، على أن لا وفاق بين العلم والعقل وهذا الدين ؟!

(1) أي في ضمن ما أرشدت إليه من النظم والفنون والصناعات.

الجواب

ربما لم يبالغ الواصف لما عليه المسلمون اليوم بل من عدة أجيال، وربما كان ما جاء في الإيراد قليلا من كثير، وقد وصف الشيخ الغزالي رحمه الله وابن الحاج وغيرهما[1] من أهل البصر في الدين ما كان عليه مسلمو زمانهم عامتهم وخاصتهم بما حوته مجلدات، ولكن قد أتيت في خاصة الدين الإسلامي بما يكفي للاعتراف به مجرد تلاوة القرآن، مع التدقيق في فهم معانيه وحملها على ما فهمه أولئك الذين أنزل فيهم و عمل به بينهم، ويكفي في الاعتراف به ذكرته من جميل أثره قراءة ورقات في التاريخ على ما كتبه محققو الإسلام و منصفو سائر الأمم، فذلك هو الإسلام. وقد أسلفنا أن الدين هدى وعقل، من أحسن في استعماله والأخذ بما أرشد إليه، نال من السعادة ما وعد الله على اتباعه. وقد جرب علاج الاجتماع الإنساني بهذا الدواء فظهر نجاحه ظهوراً لا يستطيع معه الأعمى إنكاراً. ولا الأصم إعراضاً، وغاية ما قيل في الايراد أن

أعطى الطبيب المريض دواء فصح المريض[2] وانقلب الطبيب بالمرض الذي كان يعمل لمعالجته، وهو يتجرع الغصص من آلامه والدواء في بيته وهو لا يتناوله وكثير ممن يعودونه أو يتشفون منه ويشمتون لمصيبته يتناولون من ذلك الدواء فيعافون من مثل مرضه، وهو في يأس من حياته، ينتظر الموت أو تبدل

---

(1) كالشاطبي في كتابه. الاعتصام، والبركوي في كتابه الطريقة المحمدية.

(2) إن هذا المريض الذي شفي من أمراض الجهل والتقليد والرق للملوك ورؤساء الدين، قد أنهكته أمراض أخرى اشتدت عليه في هذا العصر منشؤها عبادة المادة، وفوضي الدين والآداب، واباحة الفواحش، ولا علاج له إلا بدواء الإسلام، وأين يجده وأهله يقلدونه في تلقيح أنفسهم بجميع سموم أمراضه على أمراضهم الأولى.

سنة الله في شفاء أمثاله.

كلامنا اليوم في الدين الإسلامي وحاله على ما بيناه وأما المسلمون وقد أصبحوا بسيرهم حجة على دينهم فلا كلام لنا فيهم الآن، وسيكون الكلام عنهم في كتاب آخر إن شاء الله [1].

التصديق بما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وسلم

بعد أن ثبتت نبوته عليه السلام بالدليل القاطع على ما بيناه، وأنه إنما يخبر عن الله تعالى، فلا ريب أنه يجب تصديق خبره، والإيمان بما جاء به، ونعني بما جاء به ما صرح به الكتاب العزيز، وما تواترا الخبر به تواتراً صحيحاً مستوفياً لشرائطه، وهو ما أخبر به جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب عادة في أمر محسوس – ومن ذلك أحوال ما بعد الموت من بعث ونعيم في جنة، وعذاب في نار، وحساب على حسنات وسيئات وغير ذلك مما هو معروف.

ويجب أن يقتصر في الاعتقاد على ما هو صريح في الخبر ولا تجوز الزيادة على ما هو قطعي بظني. وشرط صحة الاعتقاد أن لا يكون فيه شيء يمس التنزيه و علو المقام الإلهي عن مشابهة المخلوقين فإن ورد ما يوهم ظاهره ذلك في المتواتر، وجب صرفه عن الظاهر إما بتسليم لله في العلم بمعناه مع اعتقاد أن الظاهر غير مراد أو بتأويل تقوم عليه القرائن المقبولة[2].

---

(1) راجع في هذا كتاب الإسلام والنصرانية مع العلم و المدنية له رحمه الله، فقد وفي فيه بوعده هذا، وهو كتاب لا يستغني عن قراءته مسلم في هذا العصر، بل قال أحد أولى البصيرة من المسلمين إنه ينبغى قراءته في كل سنة ولو مرة واحدة، وان قارئه ليجد فيه شرحاً لكثير من المسائل المجملة في هذه الرسالة.

(2) الواجب أن يحمل الخبر على معنى يتفق مع التنزيه الثابت بالنقل والعقل تدل عليه أساليب اللغة. مع العلم بأن كل ما وصف الله تعالى به نفسه قد جاء بالكلام الذي وضعه الناس لخلقه، فهو كاصطلاحات العلوم والفنون، فلا يقتضي أن يكون معناه في وصف الله تعالى عين معناه في وصف الخلق من كل وجه، بل يكفي أن يكون مناسباً له، فعلم الله وقدرته وكلامه ورحمته وحبه وغضبه، ليست من الأحوال والأعراض

أما أخبار الآحاد فإنما يجب الإيمان بما ورد فيها على من بلغته وصدق بصحة روايتها. وأما من لم يبلغه الخبر أو بلغه وعرضت له شبهة في صحته وهو ليس من المتواتر فلا يطعن في إيمانه عدم التصديق به والأصل في جميع ذلك أن من أنكر شيئا[1] وهو يعلم أن النبي ﷺ حدث به أو قرره فقد طعن في صدق الرسالة وكذب بها، ويلحق به من أهمل العلم بما تواتر وعلم أنه من الدين بالضرورة، وهو ما في الكتاب وقليل من السنة في العمل [2].

من اعتقد بالكتاب العزيز و بما فيه من الشرائع العملية وعسر عليه فهم أخبار الغيب على ما هي عليه في ظاهر القول وذهب بعقله إلى تأويلها حقائق يقوم له الدليل عليها مع الاعتقاد بحياة بعد الموت وثواب وعقاب على الأعمال والعقائد، بحيث لا ينقص تأويله شيئاً من قيمة الوعد والوعيد ولا ينقص شيئاً من بناء الشريعة في التكليف، كان مؤمنا حقا وإن كان لا يصلح اتخاذه قدوة في تأويله [3] فإن الشرائع الإلهية قد نظر فيها إلى ما تبلغه طاقة العامة لا إلى ما تشتهيه عقول الخاصة، والأصل في ذلك أن الإيمان هو اليقين في الاعتقاد بالله ورسله واليوم الآخر بلا قيد في ذلك إلا احترام ما جاء به على ألسنة الرسل.

بقيت علينا مسألتان وضعتا من هذا العلم في مكان من الاهتمام وما هما

النفسية، ويده وأصابعه ليست من الجوارح الجسمية، وخلقه ورزقه واستواؤه على عرشه ليس من الحركات البدنية، وليست معانيها مخالفة لمدلولها بالكلية، وهذا معنى قول السلف : الاستواء معلوم، والكيف مجهول، ومنه مسألة الرؤية الآتية، وقاعدتهم في ذلك أن نصفه تعالى بما وصف به نفسه، بغير تعطيل ولا تمثيل ولا تأويل كما تقدم في الكلام على الصفات.

(1) أي من أمر الدين الذي هو موضوع الرسالة والتبليغ عن الله تعالى.

(2) أكثر السنن المتواترة هي العملية كصفة الصلاة والحج، و أما الأحاديث القولية المتواترة، فقيل : إنها لا تبلغ أقصى جمع القلة.

(3) يعني أن التأويل هذه الشروط لا ينافي صحة الإسلام، فلا يباح تكفير صاحبه إلا أنه لا يقتدى به فيه، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة.

منه إلا حيث يكون غيرهما ما أجملنا القول فيه (الأولى) جواز رؤية الله تعالى في الآخرة. (والأخرى) جواز وقوع الكرامات وخوارق العادات من غير الأنبياء : من الأولياء والصديقين.

أما الأولى : فقد اشتد فيها النزاع ثم انتهى إلى وفاق بين المنزهين لا مجال معه للتنازع، فان القائلين بجواز الرؤية من أهل التنزية متفقون على أن الرؤية لا تكون على المعهود من رؤية البصر المعروفة لنا في مجرى العادة. بل هي رؤية لا كيف فيها ولا تحديد، ومثلها لا يكون إلا ببصر يختص الله به أهل الدار الآخرة، أو تتغير فيه خاصته المعهودة في الحياة الدنيا[1] وهو ما لا يمكننا معرفته، وإن كنا نصدق بوقوعه متى صح الخبر، والمنكرون لجوازها لم ينكروا انكشافا يساويها، فسواء كان ذلك بالبصر غير المعهود أو بحاسة أخرى فهو في المعنى يرجع إلى قول خصومهم ولكن مني الإسلام بقوم يحبون الخلاف والله فوق ما يظنون.

وأما الثانية : فأنكر جواز وقوع الكرامات أبو إسحق الاسفراينى من

---

(1) الإدراك في الحقيقة للروح، وإنما الحواس آلات لها، وقد ثبت بالتجارب القطعية لدى علماء الشرق والغرب في هذا العصر. أن من الناس من يبصر ويقرأ، وهو مغمض العينين، فما يسمونه قراءة الأفكار. ويبصر بعض الأشياء دون بعض في العمل النومي، ومنهم من يبصر الشيء مع الحجب الكثيرة، والبعد الشاسع، كمن أبصر وهو بمصر قريبه في الإسكندرية خارجا من داره إلى المحطة – إلى آخر ما تقدم في حاشية ص ١١٣ فإذا كان هذا قد ثبت في هذا العالم على خلاف المألوف في الرؤية لكل الناس – فهل يليق بعاقل أن يستشكل ما هو أغرب منه، وأبعد عن المألوف في الجنة. وهي من عالم الغيب المخالفة سننه و نواميسه لعالم الشهادة، وهل كان استشكال منكري الرؤية إلا بسبب قياس عالم الغيب على عالم الدنيا في الرؤية و المرئي ؟ وهو قياس باطل و بطلانه في المنري أظهر، وقد حررت هذه المسألة في تفسير المنار بتفيصل أثرى سلفي عصرى طويل فيراجع في تفسير الآية ١٤٢ من سورة الأعراف ص ١٢٢ – ١٧٨ ج٩ تفسير.

أكابر أتباع أبي الحسن الأشعري[1]. وعلى ذلك المعتزلة، إلا أبا الحسين البصري فقال بجواز وقوعها. وعليه جمهور الأشاعرة. واستدل الذاهبون إلى الجواز بما جاء في الكتاب من قصة الذي عنده علم من الكتاب الواردة في خبر بلقيس من إحضاره عرشها قبل ارتداد الطرف، وقصة مريم عليها السلام وحضور الرزق عندها، وقصة أصحاب الكهف. واحتج الآخرون بأن ذلك يوقع الشبهة في المعجزات. وأولوا ما جاء في الآيات : أما أن ذلك يوقع الشهة في المعجزات، فليس بصحيح، لأن المعجزات إنما تظهر مقرونة بدعوى الرسالة والتبليغ عن الله تعالى ولا بد أن تكتنفها حوادث تميزها عما سواها.

وأما ما احتج به المجوزون من الآيات فلا دليل فيه، لأن ما في قصة مريم وآصف[2] قد يكون بتخصيص من الله تعالى لوقوعه في عهد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولا علم لنا بما اكتنف تلك. الوقائع من شئون الله في أنبياء ذلك العهد إلا قليلا.

وأما قصة أهل الكهف فقد عدها الله من آياته في خلقه، وذكرنا بها لنعتبر بمظاهر قدرته، فليست من قبيل ما الكلام فيه من عموم الجواز. فصار البحث في جواز وقوع الكرامات نوعا من البحث في متناول همم النفوس البشرية وعلاقتها بالكون الكبير،

---

(1) وكذلك الحليمي من أكابرهم.

(2) قال بعض المفسرين في تفسير (قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) إنه وزير لسليمان اسمه آصف ابن برخيا، فجاراهم المؤلف في ذلك تنزلا، ولكن هذا لم يثبت في قرآن ولا حديث مرفوع، وإنما هو من الإسرائيليات، وقال بعضهم. إنه سليمان نفسه، ورجحه النيسابورى، وقال بعضهم. إنه جبريل، وبعضهم. إنه ملك آخر. وجملة القول. أن إحضار العرش معجزة لنبي الله سليمان. عليه السلام لا حجة فيها على مسألة الكرامات.

كذلك ما قالوه في مسألة الرزق عند مريم، وأنه كان فاكهة الصيف في الشتاء وعكسه، لم يصح فيه حديث مرفوع فهو من الإسرائيليات كما بينته في تفسير المنار.

وفي مكان الأعمال الصالحة و ارتقاء النفوس في مقامات الكمال من العناية الإلهية وهو بحث دقيق قد يختص بعلم آخر.

وأما مجرد الجواز العقلى وأن صدور خارق للعادة على يد غير نبى مما تتناوله القدرة الإلهية فلا أظن أنه موضع نزاع يختلف فيه العقلاء، وإنما الذي يجب الالتفات إليه هو أن أهل السنة و غيرهم في اتفاق على أنه لا يجب الاعتقاد بوقوع كرامة معينة على يد ولى. لله معين بعد ظهور الإسلام، فيجوز لكل مسلم بإجماع الأمة أن ينكر صدور أي كرامة كانت من أي ولي كان ولا يكون بانكار هذا مخالفا لشيء من أصول الدين ولا مائلا عن سنة صحيحة ولا منحرفا عن الصراط المستقيم. اللهم إلا أن يكون مما صح في السنة عن الصحابة.

أين هذا الأصل المجمع عليه مما يهذي به جمهور المسلمين في هذه الأيام حيت يظنون أن الكرامات وخوارق العادات، أصبحت من ضروب الصناعات، يتنافس فيها الأولياء، وتتفاخر فيها همم الأصفياء[1] وهو ما يتبرر منه الله ودينه وأولياؤه وأهل العلم أجمعون.

([1]) بل يزعمون أن هؤلاء الأصفياء، ولا سيما الموتى المشهورين الذين يسمونهم الأقطاب الأربعة هم المتصرفون في شئون العالم كله مع الله وأنهم يقضون حاجات الذين يدعونهم من دون الله بالخوارق الممنوحة لهم من نفع وضر وغير ذلك : (لا إله إلا الله وحده لا شريك له).

خاتمة

بسم اللّه الرحمن الرحيم

"وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا، يعبدونني لا يشركون بي شيئا، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون" وقد فسر الكفر في هذه الآية بكفر النعمة.

" وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقا، وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا * وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا * وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا * لنفتنهم فيه، ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعداً * وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحداً، وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً * قل إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحداً * قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً * قل إنى أن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا * إلا بلاغا من الله ورسالاته، ومن يعص الله – ورسوله، فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا * حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عددا * قل إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمدا * عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا * إلا من ارتضى من رسول، فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا * ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا ".

صدق الله العظيم، وبلغ رسوله الكريم، وخسئ الشيطان الرجيم، وحق الشكر لله رب العالمين، الرحمن الرحيم.

الفهرس

هذه الرسالة ٥
مقدمات ٧
أقسام المعلوم ٢١
حكم المستحيل ٢٢
أحكام الممكن ٢٣
أحكام الواجب ٢٧
الحياة ٢٩
العلم ٣١
الإرادة ٣٤
القدرة ٣٥
الاختيار ٣٦
الوحدة ٣٧
الصفات السمعية التي يجب الاعتقاد بها ٣٩
كلام في الصفات إجمالا ٤٢
أفعال الله جل شأنه ٤٦
أفعال العباد ٥١
حسن الأفعال وقبحها ٥٦
وذلك المعين هو "النبي" ٦٦

الرسالة العامة ٦٨
حاجة البشر إلى الرسالة ٧٢
المسلك الثاني في بيان الحاجة إلى الرسالة ٧٧
إمكان الوحي ٨٦
وقوع الوحي والرسالة ٩١
وظيفة الرسل عليهم السلام ٩٣
اعتراض مشهور ٩٧
رسالة محمد ﷺ ١٠٢
القرآن ١١٢
الدين الإسلامي أو الإسلام ١١٨
انتشار الإسلام ١٣٩
إيراد سهل الايراد ١٤٩
الجواب ١٥٢
خاتمة ١٥٩